مكتبة

الشيخ كشك

حياة الإنسان

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ
(قرآن كريم)

المكتب المصرى الحديث

الناشر : المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

حياة الإنسان

هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ
(قرآن كريم)

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ »[1] صدق الله العظيم .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٢ ــ ١٦ .

الإهـــــــــداء

إلى كل ذى قلب سليم ...

إلى الذين ينسبون الخلق إلى الطبيعة الصماء ...

إلى الذين آمنوا بربهم ، وآمنوا بأن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ...

إلى الذين لم تفتنهم الدنيا بزخرفها وغرورها ...

إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ...

المؤلف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأصلي وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين ، سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين . صلِّ اللهم وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ، ونتوب إليك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثني عليك الخير كله . نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك .

اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد .. نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك . إن عذابك الجد بالكفارملحق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد : فهذا بحث علمي عن « الإنسان ونشأته » ، وأنه ــ لامحالة ــ خالعٌ ثوب الحياة الدنيا ، إلى حياة باقية خالدة ...

فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء !

وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء !

وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء !

فسبحان من أوجب الوجود لذاته . وكتب الفناء على جميع خلقه !

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعـوام مالك أمره

متلذذاً فيهـا بكل نفيسة متنعماً فيها بنعمى عصره

لا يعتريه السقم فيها مـرة كلا ، ولا ترد الهموم بباله

ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره !!

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة .. فكل مملوك يموت، ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت: (كل نفس ذائقة الموت، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون) . (كل من عليها) فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

تأمل هذه الآيات وأعمل فيها الفكر . تجدها كلها قضايا كلية موجبة صدرت بكلمة « كل » فلا استثناء لأحد ... ولم تسبقها أداة نفى ، لنعلم أن هذه الدنيا لها أجل معلوم ، وموعد لا يتخلف !..

وسبحان من يقول :

(يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب) .

الانســـــان
آية من آيات الله تعالى

(لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)

قال أحد العارفين بالله وهو يناجى ربه : « سبحانك ربى ! آمن بك المؤمن ، ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ، ووجوده فى ملكك دليل وجودك وعظمة ذاتك » .

قيل للإمام على رضى الله عنه : متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ قيل له : فما الدليل على وجوده ؟ فقال : ومتى غاب ؟ سبحانه ! هو الأول فلا شىء قبله ، والآخر فلا شىء بعده ، والظاهر فلا شىء فوقه ، والباطن فلا شىء دونه .. سبحانه ! علا : فقهر ، وبطن : فخبر ، وملك : فقهر !!

حقيقة الانسان

فى إحدى أمسيات شهر شعبان من عام أربعة وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، كنت أطالع كتاباً تحت عنوان ... « الطاقة الإنسانية » للأستاذ أحمد حسين : فراعنى هذا الفصل الذى تحدث فيه عن نشأة الإنسان ، وعن الأسرار الإلهية البالغة التى احتوى عليها خلقه ؛ فأردت أن تشاركنى – أخى القارىء – فى هذا الجلال الذى يأخذ بذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة إلى محراب الخشوع للخالق العظيم ، جل جلاله ...

فمن نحن ؟

إليك ما قاله العلم الحديث فى الإجابة عن هذا السؤال :

نشأة الإنسان :

ينشأ الإنسان مذ كان إنساناً كأى حيوان آخر ، من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذى يوجد به حوالى ٣٠٠,٠٠٠ بويضة ، تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج ، وتتناهى هذه البويضة فى الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها عن أوقية ! !

أما الحيوان اللازم لإخصاب البويضة ، فإن حجمه لا يزيد على $\frac{١}{٨٠٠٠}$ من البويضة ، وقد قرب لنا عالم بيولوچى أمريكى وهو (ه . ج. مولر) نسبة حجم الحيوان المنوى إلى البويضة ، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالى :

لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها (وقت كتابة العالم لكتابه) بليون ومائتى ألف بويضة، لما شغلت أكثر من $\frac{٥}{٨}$ من الجالون ، أما نفس العدد من الحيوانات المنوية ، فحجمها لا يزيد عن نصف قرص من الإسبرين ! !

والمعروف أن البليون : ألف مليون .

التلقيح :

ويمضى العلم فى كشف هذه الأسرار فيقول :

وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوى المنتظر

لإخصابها فى وقت الحيض ، حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز البويضة فى غشاء بوق فالوب ، فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) إلى داخل الرحم .

فى هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغيير هام .. إذ تكون قد قذفت بنصف مادتها ، أو بعبارة أخرى بنصف كل كروموزوم ، وعندئذ يخترق الحيوان المنوى — (الذى يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته) — أسطح البويضة ويتحد القسم الباقى من كروموزوماته بما بقى من كروموزومات البويضة ، مكونين بذلك مخلوقاً جديداً مؤلفاً من خلية واحدة طعمت فوق مخاط المهبل .

وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام ، كأى خلية أخرى ، ومع ذلك ، فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبويها .

إن فيها صفات الأم وفيها صفات الأب ، بل فيها كل الأمراض الوراثية للزوجين وأسلافهما ، ومع ذلك ، فهى شيء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين ...

هذه الخلية الميكروسكوبية الأولى .. هى الإنسان الخلية .. إنها كتاب وسطور وكلمات وحروف .

وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى نكون بشراً سوياً ، ليتحقق لنا مصداق ذلك .

إذ أن من الخلية الأولى تبدأ رحلة الإنسان :

رحلة الإنسان فى الخلايا :

إن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين متلاصقتين ، تنقسمان بدورهما إلى أربع ، فثمان ، فست عشرة ، فاثنتين وثلاثين ... وعند هذا القدر من الانقسام ، ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين ، الذى يؤلف من نفسه فى هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها ، ومغمورة بالماء من الخارج ، فهو الحياة على صورة النقطة العائمة فى الماء .

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها طوراً بعد طور ، ومرحلة إثر أخرى ، فإذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبها بالدودة (العلقة) وتارة أقرب شبها إلى السمكة .

والذى يهمنا أن نشير إليه أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين من المرات .. لقد أصبح طول حجمه يناهز البويضة وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة ، وأصبح أقرب ما يكون فى التكوين إلى الضفدعة .

وفى الشهر الثالث :

وإذ نكون قد وصلنا الآن إلى الشهر الثالث ، فقد أصبح وزن الجنين أكثر من أوقية ، وطوله أكثر من ثلاث بوصات . وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ، حتى الأعضاء التناسلية والأذرع . والأرجل والأظافر قد تكاملت .

وفى الشهر الرابع :

وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتزايد بعد ذلك فى اطراد .

وفى الشهر السادس حتى الخروج :

فإذا كان الشهر السادس : فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمتراً ، ووزنه ثلثى كيلو جرام . وبعد ٢٥٢ يوماً — أى فى أواخر التاسع — يكمل نمو الجنين ، ويصبح مهيئاً للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها ، حيث يأتيه رزقه رغداً فى كل وقت وآن ، بدون جهد أو آلام ...

ويقذفه الرحم خارج الجسم !!

إنه لم يعد بعد الآن جنيناً .. إنه طفل الإنسان .

ولما كان الطفل يخرج لأول مرة من المائع الذى كان يعيش فيه يتغير المحيط من حوله ويصطدم بالهواء الجوى لأول مرة ، وهو ينفذ إلى رئتيه ، فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة ، وإعلانا عن بدء مرحلة جديدة من مراحل الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار.

مولد الجنين :

وعندما يولد الجنين : فإن وزنه يكون فى العادة بين $2\frac{3}{4}$ و ٣ كيلو جرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمتراً .

وقد حان الآن أن أذكرك أن هذا الحجم الضخم . قد بدأ من هذه البويضة التى كانت $\frac{1}{20,000,000}$ من الأوقية .. أى أنها تضاعفت ألوف الملايين من المرات ، ولكى تعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر نقول :

لو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى ، لأنتج حجما أضخم من كل المجموعة الشمسية ، أى جسما قطره ملايين الأميال. ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين ، لزاد على المجرات حجماً ، ولزحم الكون الذى نعرفه .. ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه الوتيرة ، فهى لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين .

أشكال الخلايا المختلفة :

انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون ٢٦ مليون خلية ، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى ، وتتشكل تبعاً لذلك تشكلاخاصاً يمكنها من أداء دورها الخاص . كيف أن هذه الخلية الأولى التى لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى ، أو الخلية الأولى لأى حيوان ، تبدأ عند مرحلة معينة فى سلم النمو ، فيتحول شكلا بحيث تصبح مثمنة أو نجمية أو خيطية أو مستديرة ، أو على شكل البسكويت ، أو المكعبات أو العصى أو العناكب ، أو على شكل القوس أو متفرعة كالشجرة . فكيف تفرز هذه الخلايا أسمنتا لتربط ، أوسائلا ليتجول فيه بحرية أو تغير مادتها لتصبح غضروفية ، أو جيرية لتكون عظاماً ، أو تمعن فى الصلابة لتكون ميناء الأسنان ، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف ، والبعض يصبح معتما كالحجر ، بعضها لا لون له ، ونوع أحمر وآخر أسود ، خلايا تغص بالتفاعلات الكيمائية الثائرة ، كما لو كانت مصانع وخلايا خامدة ، كما لو كانت ميتة.. خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكي ،

وخلايا تقوم بدور الدعائم التى تدعم أى بنيان ، البعض يصبح نظاماً لإعطاء الإشارات الكهربائية ، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة ، وما من خلية من ملايين الملايين هذه إلا وتعد نفسها بالحجم المطلوب فى الوقت المحدد ، والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة المقررة فى العضو الذى لن يستعمل إلا بعد فترة معينة ، وفى ظروف مختلفة .

إنها تعمل فى الظلام لإنتاج الإبصار الذى يعمل فى النور .

إنها تعمل — فى صمت — جهاز السمع الذى يتأثر بالأمواج الصوتية .

إنها خلايا عمياء لا تعرف فوقاً ولا تحتا .

ومع ذلك ، فإن خلية الأعصاب تعرف طريقها. نحو خلية اللمس فى نهاية الإصبع لتتصل بها !!

إن كل شيء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوى على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول «شرنجتون» .

بناء الجسم عند « كاريل » :

أما « كاريل » فيقرب لنا صورة ما يحدث فى بناء الجسم ، بأن يطلب منا أن نتخيل « طوبة » واحدة يُشرع فى بناء منزل بمفردها ، فتكون من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين ، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعمارى ، أومجىء البنائين والفعلة ، ولكنها ترص نفسها بنفسها صانعة البلاط ، ومكونة الجدران ، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ وزجاج لهذه النوافذ ، وألواح للسقف ، وفحم للتدفئة ، وماء للمطبخ والحمام .

وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك ، إنه يوجد بواسطة خلايا عاملة سلفاً بالبناء الذى يجب أن تنسقه فى المستقبل ، فتصنع من المواد الموجودة فى بلازما الدم ، مواد البناء ، بل وتصنع العمال أنفسهم .

واستطرد حديث العلم حتى وصل بنا إلى تكوين العين .. فما هو ذلك الجهاز الدقيق الذى يبصر به الإنسان الكائنات المرئية ؟!

اسمع يا أخى إلى هذا العجب العجيب ، واسجد لله فى محراب الشكر والعرفان والخضوع والولاء .. هو الذى أحسن كل شىء خلقه ... إنه صنع الله وإتقانه :

تــكوين العين

يقول العلماء الكونيون : « من مخ الجنين ينشأ برعم صغير ، هو الذى يتكون منه الجزء الأكبر من العين . ومن الجلد الذى يغطى هذا البرعم ، ينشأ القسم الثانى .. هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة !

وكرة العين ليست فى طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة (إذا جاز لنا أن نعكس التشبيه) ، وصغر آلة تصوير العين ، هو آية كمالها ودقتها ، والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها فى أى عضو آخر .

إن العين تكوّن فى الظلام ، ومع ذلك فكل شىء فيها يعد لاستقبال النور . ويوم أن تتعرض للنور ، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت

لذلك فى المكان الذى يجب أن تكون فيه ، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب ، وهو الإبصار ، فهى (أى العدسة) محدبة من الوجهين ، وهى معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء فى البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة شبكية العين فى المؤخرة .

تدرج عدسة العين :

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين من خلايا الجلد ، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجاً شفافاً ، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر نورتها .. هذا الضوء الذى لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر !

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) كما هو الشأن فى أى آلة تصوير أو ميكروسكوب ، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لإتمام عملية الإبصار ، فحيث يقل الضوء : يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر ، أما إذا زاد الضوء واشتد فإن حزمة صغيرة منه تكفى لأداء الغرض . ومن هنا تضيق الحدقة .

وفى آلة التصوير أو المجهر ، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة ، أما فى العين البشرية ، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة ، كأثر مباشر ، لشدة ضوء الشىء المراد رؤيته .

ولأمر ما ، شاء الله أن يجعل هذه القزحية العينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود إلى الأزرق .. فالعسلى ، تبعاً للون قزحية الأبوين ،

وكلاهما ملىء بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء ، ولكنه محفوظ فى درجة ضغط معينة ، ليحفظ على كرة العين شكلها الذى يجب أن تكون فيه .

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التى تحولت بدورها إلى زجاج شفاف ، لتكون نافذة للعين ، وهى ما نطلق عليها اسم القرنية ، وهذه القرنية خالية تماماً من الأوعية الدموية ، حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين ، فتحجب بعض عناصر الصورة . ويغطى هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحى ، بطبقة من الدموع المائية التى تتميز بقوة كيماوية خاصة لقتل أى جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها.

وإذا كان من خصائص جلد الإنسان أن ينطوى على مظاهر الإحساس الأربعة (من حرارة ، وبرودة ، وضغط ، وألم) ، فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التى تكون نافذة العين ، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس .. ذلك هو الإحساس بالألم ، فلمسها يحدث الألم ، لأنها يجب ألا تلمس بحال من الأحوال .

ويتجمع الجلد فوق النافذة وتحتها مؤلفاً أجفاناً متحركة ، وهى جافة من الخارج كأى جلد عادى ، ولكنها رطبة من الداخل ، لكى يكون باستطاعتها دائماً أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة ، أو أى جسم غريب قد يقع عليها ، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها.

* * *

صنع الله الذى أتقن كل شئ :

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسى للعين الذى يقع فى مؤخرتها ، ونعنى به شبكية العين . هذه اللوحة الحساسة للضوء ، والتى يسجل على صفحاتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء ، بل بدون تغيير على الإطلاق ، منذ يبدأ الطفل عملية البصر ، إلى أن يكون شيخاً هرماً قادراً على الإبصار .

ومع ذلك ، فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلا ونهاراً بغير انقطاع ، فتتلقى مختلف الصور من كل لون وطراز ، وتبرق بها إلى المخ ، وتنظم هذه الآلة التصوير بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعاً للصورة التى يهمها التقاطها ، فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف — حسب الحاجة — فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية فى اتجاه المنظور ، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائماً على أحسن نقطة للرؤية فى الشبكية .

سبحان المبدع :

وأخيراً فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدماً على حفظ ذاتها .. فلو هددها أى خطر ، ففى أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها لتحمى نافذة العين الشفافة ! !

وفى نفس الوقت الذى تكون فيه كرة العين آخذة فى التكوين ، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد كأس العين الذى

ستستقر فيه ، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذى تكونت منه لتستقر فى كأسها البصرى الجديد .

وفى غضون بضعة أسابيع ينشأ فى قاع هذا الكأس البصرى ، حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية ، التى تربط بين المخ والخلايا العصبية فى العين .

وينتشر على شبكية العين ٣٧ مليون عنصر مستقل ، تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة ، وتظل هذه العناصر والأعصاب التى تنقل المؤثرات المختلفة إلى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يجاوز المليون إلا بقليل ، وما من عصب فى هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب ، وهى هذه المحطات التى توصل كل منها إلى محطة أبعد منها ، والمخ فى حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة من محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك ! !

وليست العين — فى نهاية الأمر — سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية يتألف منها باقى أجزاء الجسم الأخرى ، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت هى التى تعمل متعاونة باتفاق مشترك على تنفيذ الخطة الموضوعة ، حتى إذا تم تكوين العين ، فإن هذه الخلايا التى ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص ، تقف فجأة عند حد ما أنجزته ، فلا تزيد عليه ، وتقع فى سبات نسبي فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير .

وقد يتصور القارئ ذلك الذى وصفناه ضرباً من الخيال الفج ، أو القصص البارع ، ومع ذلك فإن هذا الذى قلناه ، هو حق لا مرية فيه .

إنه الواقع العجيب الذى يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة ...

فسبحان ربى العظيم !!

القلب ووظيفته

يحدثنا القرآن الكريم ، عن القلب ، على أنه مركز الوعى والإدراك والفهم العميق ...

من ذلك قوله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » ، وقوله جل شأنه : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ..؟ »

وهناك حديث مادى للعلم يشرح لنا فيه « القلب » على أنه مضخة ماصة كابسة ، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة حتى يتملكنا العجب مما يتملكنا لو نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف ... إجلالا وإكباراً وتعظيما لله ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، إنه صنع الله الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

فقد ثبت بالتشريح ووصف الدور الذى يؤديه القلب للإبقاء على الحياة ، ما يفوق كل تصور وإدراك ...

إن القلب يمثل الحركة الدائمة ، ما بقى الإنسان حياً .. فهو الذى يدق ، يدق فى النوم مثل ما فى اليقظة ، وفى المرض مثل ما فى الصحة . وهذه « الدقة » تعنى أن القلب — ذلك الجهاز العجيب — يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان ، فيضخ الدم فى الشرايين ويستجلبه من الأوردة .

فلو عاش الإنسان ستين عاماً أو تسعين — أو أكثر من ذلك أو أقل — فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة ، بل ولا لبضع ثوان ... ومعنى ذلك أن القلب إذا كان يضخ فى المتوسط سبعين ضخة ، (أو دقة) فى الدقيقة ، فإن ما يضخه (أو يدقه) فى العام ٣٧ مليون دقة .

فلو أن رجلا عاش إلى السبعين من عمره ، فإن ذلك يعنى أن قلبه قد دق — أو بالأحرى قد ضخ الدم — ٢٥٩٠ مليون مرة فى اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل !

فإذا علمت أن أية آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع إلا بضعة أيام على الأكثر — ولابد دائما من تعهدها بالصيانة والإصلاح والرعاية — استطعت أن تدرك أى إعجاز آلى يعنيه قلب الإنسان !!

والقلب يضخ فى الضخة الواحدة ستين سنتيمتراً مكعباً من الدم ، أى ما يملأ فنجان شاى فى كل دقيقة ، ومعنى ذلك أنه يضخ ٣٠٠ لتر من الدم فى الساعة ، أى نحو ٨ آلاف لتر فى اليوم ، وهو ما يساوى ٨ أمتار مكعبة (أو ما يساوى ١٥ طناً من الدم فى اليوم الواحد) لا يستهلك منها لنفسه إلا شيئاً يسيراً جداً .. ومع ذلك ، فإن هذا القلب لا يزيد وزنه عن نصف رطل فى المتوسط ولا يزيد عرضه عن ٣½ بوصة ، وطوله خمس بوصات ، وسمكه بوصتان ونصف !

فأى سر إلهى عظيم اشتملت عليه هذه الكتلة التى تقوم بهذه الأعمال الجبارة ، والتى تعجز آلات فى حجم الجبال أن تقوم بها ؟!!

إنه صنع الله الذى أتقن كل شىء !!

الجهاز العصبى

وينتقل بنا حديث العلم إلى الجهاز العصبى .. ذلك الذى تحار فيه عقول المفكرين ، وتقف واجمة حياله عبقريات البارعين ..

فسبحانك اللهم :

يا من يحار الفهم فى قدرتك　　وتطلب النفس حمى طاعتك

تخفى عن الناس سنا صنعتك　　وكل مافى الكون من صنعتك!

ماذا يقول العلم عن هذا الجهاز الدقيق المعجز ؟

يقول العلم :

إذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل ، فإن الجهاز العصبى ، هو الوسيط الكهربى الذى يدعم هذه الوحدة ويصونها ، بما لا يقل فى الأهمية عن دور الدورة الدموية .

فالإنسان يناضل فى سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه .

والجهاز العصبى يتألف من جهازين ، يكمل كل منهما الآخر .

أحدهما : واع موجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية ، وأهم أجزائه المخ .

الثانى : لا شعورى ، آلى ، وذاتى الحركة ، يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم ، وهو ما يسمى « بالجهاز السمبتاوى » !!

الجهاز المركزى :

يتكون الجهاز الرئيسى — أو المركزى — من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل . ويطلق على هذه الثلاثة اسم : الدماغ الذى يحتل الجمجمة ، ويبلغ وزنه فى الإنسان حوالى ثلاثة أرطال ، ثم النخاع الشوكى أو العمود الفقرى .

المـــخ

يقع المخ فى أعلى الدماغ ومقدمه ، ويشبه فى شكله نصف الكرة . وينقسم المخ إلى قسمين : أيمن وأيسر ، بكل منهما أربع قطع ، أو فصوص :

واحد : مقدمى ، وآخر : جانبى من الخارج ، وثالث : جانبى من الداخل ، ورابع : مؤخرى .

وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين :

١ — إحداهما : عليا سمراء اللون ، عمقها نحو ٤ ملليمترات ، وتسمى اللحاء ، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر ، التى يبلغ عمق إحداها بوصة .

٢ ـ الطبقة الثانية : داخلية بيضاء ، وتكثر بها الألياف العصبية التى توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض ، وتحتوى المادة المخية ـ على ما يقال ـ على أكثر من ١٢,٠٠٠ مليون خلية وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبى ، ولكل ليف عدة فروع .

وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف .

وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المتطورة ، تعمل بدقة متناهية ، كما لو كانت خلية واحدة ، برغم تعقدها الذى لا يمكن تصوره .

والمخ هو المسيطر على المراكز الفعلية ، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا ، ومصدر الأعمال الإرادية .. فهو الذى يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد ، ومن أعضاء الحس ، وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، والمخ هو الذى يرسل الإشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة.

وتسمى الألياف العصبية التى تحمل الرسائل من الحواس إلى المخ : أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة ، أما الألياف التى تنقل الرسائل منه إلى العضلات ، فتسمى ، أعصاب الحركة ، أو الأعصاب المرجعة.

وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى : « الروابط » .

وتقدر سرعة التيار الذى يحصل الرسائل مع المخ وإليه ـ عن طريق الأعصاب ـ بنحو ثلاثين متراً فى الثانية الواحدة .

وإذا قورن المخ البشرى بالمخ الألكترونى ، فإنه يوازى مخاً يحتوى على الأقل ١٥,٠٠٠ مليون أنبوبة إلكترونية .

وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور « جوهانس شاليه » عالم الأبحاث البيولوجية فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى ، الذى يؤكد أن المخ البشرى يحتوى على ١٥,٠٠٠ ألف مليون خلية عصبية كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من « الوات » وعندما يؤدى المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة ، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين ، وواحد على ٢٠٠ ألف من الفولت ، بذبذبة تتراوح بين ٨ إلى ١٤ سيكل فى الثانية !!

مراكز الاحساس والحركة بالمخ

والحاء ، أو قشرة المخ وسطحه ، هو مركز الأعمال الفكرية ، كما أسلفنا ، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة فى الحاء يتحقق بها الإدراك لمختلف الحواس ، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم .

أقسام مراكز المخ :

وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث :

١ — حسية . ٢ — حركية . ٣ — مشتركة

فأما الحسية : فتشمل مراكز السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم والحس .

وأما الحركية : فهى التى تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء : كاليد ، والرجل ، والوجه ، والعنق ، واللسان .

ويدخل فى هذه : مراكز للشعور بحركة الجسم .

وأما المراكز المشتركة : فهى التى تحتفظ بآثار المراكز السابقة ، وتنتفع بها فى الفكر والتخيل والتذكر .

ويقع مركز البصر فى مؤخر الدماغ من أسفل .

وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع ، ويقع فوق الأذن تقريباً .

وبين مركزى البصر والسمع ، مركز الكلمات المرئية ، والكلمات المسموعة ، كلٌّ بجانب المركز الذى يلائمه .

ومركز الأفكار السامية فى أعلى المقدم إلى الأمام .

ويقع خلفه مركز الكتابة ، فمركز الكلام .

وفى الجهات الباقية من أعلى الدماغ وأوساطه ، تقع مراكز الحركة والإحساس العضلى ، والشعور بحركات الجسم ، على هذا الترتيب ، من الأمام إلى الخلف .

ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام . وخلفه مركز حركات الرجل واليد والوجه ، على الترتيب من أعلى إلى أسفل .

وتحت مركزى حركات الرأس والوجه ، يقع مركز حركات اللسان والشفتين .

وهذه المراكز تقع فى كل من جانبى المخ .

ولكن مراكز الجانب الأيسر هى مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس .

وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التى دلت على أن أى خلل يحصل لأحد هذه المراكز ، يستتبعه — على الفور — حدوث شلل فى العضو المتصل به .

وضربة شديدة على مركز الكلام مثلا ، تسبب تعقداً دموياً قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد .

ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد ، إذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى .

المخيخ

يقع المخيخ ، تحت المخ ، وفوق النخاع المستطيل وخلفه ، وفى أسفل مؤخرة الجمجمة ، ويتكون — مثل المخ — من طبقتين .

طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا ، وبها قليل من التلافيف .

وطبقة داخلية بيضاء اللون ، وتكثر بها الألياف العصبية .

وينقسم « المخيخ » إلى ثلاثة فصوص : واحد فى كل جانب ، والثالث فى الوسط ، وهو أصغر من الأولين ، ويسمى بالدودة .

ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ ، بضبط العضلات وتنظيم حركاتها كى تحفظ توازن الجسم ، فإذا حصل خلل فى المخيخ ، اضطربت حركات الشخص وسكناته ، وراح يتمايل تمايل الثمل .

ويؤدى المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة ، ولا يتدخل المخ فى شؤونه إلا عند الحركات الإرادية الشعورية ، كتعليم المشى للطفل .

النخاع المستطيل

ثم يأتى النخاع المستطيل ، وهو فى الحقيقة امتداد للنخاع الشوكى ، بحيث يمكن اعتباره جزءاً منه .

ويملأ الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته فى أسفل الجمجمة وتحت المخ .

ويتكون — على عكس المخ والمخيخ — من مادة بيضاء اللون من الخارج وسمراء من الداخل .. ومعنى ذلك أن الخلايا العصبية : تكثر بداخله .. أما الألياف ، فتكثر فى طبقته الخارجية .

ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية : كالدورة الدموية ، وعمليـــة التنفس ، والهضم ، ويساعد النخاع المستطيل « العصب السمبتاوى » فى القيام بوظيفته .

النخاع الشوكى

يملأ القناة الشوكية التى فى العمود الفقرى ، ويتألف من مادة تسمى « النخاع الشوكى » . ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب فى الجسم ويبلغ طوله نصف متر .

ويتكون — مثل النخاع المستطيل — من مادة بيضاء سطحية ، وأخرى سمراء داخلية ، فخلاياه العصبية فى الداخل وأليافه فى الخارج ، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم فى الثلث الأسفل .

وتخرج من كل منجانبي النخاع الشوكى : أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات ، ووظيفة النخاع الشوكى ، هى القيام بالأعمال المنعكسة ، مما سنتحدث عنه فى الفصل التالى إن شاء الله .

الأعصاب

وتكون الأعصاب : الجهاز الدائرى للجسم ، والعصب : مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة .

وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام ، وهى :

١ — **أعصاب حس** : أو أعصاب مرسلة ، وهى التى تحمل الآثار من الحواس وباقى الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى .

٢ — **أعصاب حركة** : أو أعصاب مرجعة ، وهى تنقل الرسائل من

المراكز العصبية إلى العضلات ، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية .

٣ — أعصاب مشتركة: أو وصلية ، وهى التى توصل المراكز العصبية بعضها ببعض ، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة . وقد تكون الرسالة التى تحملها ، رسالة من مركز إحساس ، وقد تكون من مركز حركة .

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية ، أى الدماغ والنخاع الشوكى .

ولذلك . فهى تنقسم إلى قسمين : قسم دماغى ، وقسم شوكى ،أما الأعصاب الدماغية ، فيخرج بعضها من المخ ، والبعض الآخر من النخاع المستطيل ، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات . وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكى من خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات .

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات ، ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس ، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب .

الجهاز العصبى ، الآلى أو السمبثاوى

وإلى جوار الجهاز العصبى الرئيسى أو المركزى، يقوم الجهاز العصبى الآلى ، وهو الذى يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كله فى معاملاته مع العالم الخارجى .

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبي العمود الفقرى ، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب ، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبي العمود الفقرى ، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقرى ، ويكونان حبلا واحداً أو سلسلة واحدة ، وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكى بقليل ، وترسل هذه العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية ، كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .

ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض ، اسم « باراسمبتاوية » .

أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى « السمبتاوية » .

ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب فى وقت واحد :

«فالباراسمبتاوية » : تبطىء القلب ، فى حين أن « السمبتاوية » : تزيد من سرعته ، والأولى تمدد حلقة العين ، بينما تسبب الأخيرة تقلصها .. وهكذا . وتبعاً لسيطرة أحد هذين الجهازين أو الآخر ، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة .

وذروة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعضاء .

فالأعصاب « السمبتاوية » تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه ، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة .

سيطرة الجهاز العصبى على الجسم

بهذين الجهازين العصبيين : « المركزى ، والسمبتاوى » تتحقق للإنسان — بإذن الله تعالى وإرادته — سيطرته الكاملة على جسده .

* * *

تبارك الله أحسن الخالقين :

هذا هو الإنسان ، الذى إن دل خلقه على شىء ، فإنما يدل على وجود الله ووحدانيته وعلمه وإرادته وقدرته !
تباركت ربنا وتعاليت ! !

يا من قلت ، وقولك الحق : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين) .. ! !

نهايـــة الإنسـان

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)

« ثم إنكم بعد ذلك لميتون » .

ومن هنا ، فسوف يدور حديثنا حول مرحلة الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة .. من عالم الفناء إلى دار البقاء ...

ونعنى بمرحلة الانتقال ، مرحلة ما بعد الوفاة إلى أن تقوم الساعة ، وهو ما يسميه علماء العقيدة ، بعالم « البرزخ » الذى صرحت به الآية الكريمة : (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .

ونبدأ الكلام بما يسن فعله للمحتضر ، وهو الذى أوشك أن يسلم الروح إلى خالقها ، ليضع قدمه على عتبة الآخرة .

فما هى هذه السنن ؟

ها نحن نبينها على الوجه التالى :

يسن عند الاحتضار مراعاة السنن الآتية :

أولهـا :

تلقين المحتضر : لا إله إلا الله .

لما رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ».

والمقصود (بموتاكم) هنا ، المحتضرون ، الذين هم فى سياق الموت من المسلمين .

وروى أبو داود ، وصححه الحاكم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، دخل الجنة » .

والتلقين : إنما يكون فى حالة ما إذا كان لا ينطق بلفظ الشهادة ، فإن كان ينطق بها ، فلا معنى لتلقينه ، والتلقين إنما يكون لحاضر العقل ، القادر على الكلام ، فإن شارد اللب لا يمكن تلقينه ، والعاجز عن الكلام ، يردد الشهادة فى نفسه .

قال العلماء : وينبغى أن لا يلح عليه فى ذلك .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) واجعلنا ياربنا من الذين تقول فيهم :

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم) .

فضل : لا إله إلا الله

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى . لا إله إلا الله أفنى بها عمرى . لا إله إلا الله ألقى بها ربى . لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى . لا إله إلا الله أدخل بها قبرى .

حسبنا أن نقول إنها الكلمة الطيبة التى جاءت فى قوله تعالى : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) .

إنها كلمة الله التى جاءت فى قوله تعالى : (وكلمة الله هى العليا . والله عزيز حكيم) .

إنها كلمة التقوى ، التى جاءت فى قوله جل شأنه : (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) .

إنها اللواء الذى حمل الأنبياء جميعاً لرفعه .. قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

إنها الراية التى عاش فى ظلها الأنبياء والمرسلون : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) .

إنها الكلمة التى أضاءت سيناء وما حولها : (وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى يا موسى : إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى) .

فضل لا إله إلا الله : فى كلام النبوة

أفاضت أحاديث رسول الله ﷺ فى فضل هذه الكلمة الطيبة الكريمة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله . . من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولى منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » رواه البخارى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق . أدخله الله الجنة على ما كان من عمل . زاد خباذه « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » . رواه البخارى ، واللفظ له ومسلم .

وفى رواية لمسلم والترمذى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : حرم الله عليه النار » .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ ومعاذ ردفه على الرحل ، قال : « يا معاذ بن جبل : قال لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثا) قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار . قال يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذن يتكلوا » .

وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً . رواه البخارى ومسلم . ومعنى «تأثماً» أى تحرجاً من الإثم وخوفاً منه أن يلحقه إن كتمه .

وروى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة ، قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله » رواه الطبرانى فى الأوسط وفى الكبير .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ، ما اجتنبت الكبائر » رواه الترمذى . وقال حديث حسن .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، أنه قال : « قال موسى ﷺ : يارب علمنى شيئاً أذكرك به وأدعوك به ؛ قال : قل لا إله إلا الله ، قال : يارب كل عبادك يقول هذا ، قال : قل لا إله إلا الله ، قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به ، قال : « ياموسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، مالت بهم لا إله إلا الله » رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم . وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أفضل الذكر : لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله ، » رواه ابن ماجه والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال الحاكم صحيح الإسناد

وعن يعلى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس رضى الله عنه، وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه ، قال : « كنا عند النبي ﷺ ، فقال : هل فيكم غريب ؟ (يعنى أهل الكتاب) . قلنا لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : « ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا ساعة ثم قال : الحمد لله ، اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها ، ووعدتنى عليها الجنة ، وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم » رواه أحمد بإسناد حسن والطبرانى وغيرهما .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جددوا إيمانكم . قيل : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله » رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد : حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها » رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الجنة : شهادة أن لا إله إلا الله » . رواه أحمد والبزار .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا منشرهم وكأنى أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

وفى رواية : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا عند القبر » رواه الطبرانى والبيهقى .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بوصية نوح لابنه ؟ قالوا : بلى ، قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يا بنى إنى أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أوصيك بقول لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت فى كفة ووضعت السماوات والأرض فى كفة ، لرجحت بهن ، ولو كانت حلقة لقسمتهن حتى تخلص إلى الله » . رواه البزار .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملأه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه » .

وعن أبى أيوب رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير عشر مرات . كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل » . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن يعقوب بن عاصم رضى الله عنه ، عن رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنهما سمعا النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ما قال عبد قط لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، مخلصاً بها روحه ، مصدقاً بها قلبه ، ناطقاً بها لسانه ، إلا فتق الله عز وجل له السماء فتقاً حتى ينظر إلى

قائلها من الأرض ، وحق لعبدٍ نظر الله إليه ، أن يعطيه سؤاله » رواه النسائى .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير الدعاء ، دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلتٍ أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » . رواه الترمذى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو الحى الذى لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، لا يريد بها إلا وجه الله ، أدخله الله بها جنات النعيم » رواه الطبرانى .

لا اله الا الله

كلمة التوحيد ، لها أثر كريم فى تفريج الكروب :

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله قبل كل شيء ، ولا إله إلا الله يبقى ربنا ، ويفنى كل شئ . عوفى من الهم والحزن » . رواه الطبرانى .

* * *

هذا الحشد المقدس من الأحاديث النبوية الشريفة ، يتألق ضياؤه مستمداً من كلمة التوحيد ، ويضيء سناه مشرقاً ، من كلمة لا إله إلا الله .

نسأل الله تعالى أن يذكرنا بها عندما يحين الأجل ، ويجعلها آخر كلمة لنا نختتم بها صحيفة الدنيا .

* * *

الخطوة الثانية التي يستحب فعلها عند الاحتضار :

توجيه الميت إلى القبلة

يستحب توجيه المحتضر إلى القبلة مضطجعاً على شقه الأيمن :

لما رواه البيهقي والحاكم وصححه ، عن أبي قتادة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة سأل عن البراء بن معرور ، فقالوا : توفي ، وأوصى بثلث ماله لك ، وأن يوجه للقبلة إذا ما احتضر . فقال النبي ﷺ : « أصاب الفطرة ، وقد رددت ثلث ماله على ولده ؛ ثم ذهب فصلى عليه وقال : اللهم اغفر له وارحمه وأدخله جنتك . وقد فعلت » قال الحاكم : ولا أعلم في توجيه المحتضر إلى القبلة غيره .

وروى أحمد : أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم عند موتها استقبلت القبلة ثم توسدت يمينها .

وهذه الصفة : التي أمر الرسول ﷺ النائم أن ينام عليها ، والتي يكون عليها الميت في قبره . وفي رواية عن الشافعي : أن المحتضر يستلقي على قفاه ، وقدماه إلى القبلة ، وترفع رأسه قليلا ليصير وجهه إليها ، والأول الذي ذهب إليه الجمهور : أولى .

الثالثة : قراءة سورة يس

يستحب قراءة سورة يس عند المحتضر :

وذلك لما رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وابن حبان وصححاه عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » .

قال ابن حبان : أراد به من حضرته المنية ، لا أنها تقرأ على الميت .

ويؤيد هذا المعنى ، ما رواه أحمد فى سنده عن صفوان قال : كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت يس عند الموت خفف عنه بها . قال أبو الدرداء وأبو ذر قال رسول الله ﷺ : « ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس إلا هون الله عليه » .

الرابعة : تغميض عينيه

يستحب تغميض عينى المحتضر :

لما رواه مسلم أن النبي ﷺ ، دخل على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : « إن الروح إذا قبض ، تبعه البصر » .

الخامسة : تغطيته

يستحب تغطية الميت :

صيانة له عن الانكشاف ، وستراً لصورته المتغيرة عن الأعين .

فعن عائشة رضى الله عنها : « أن النبى ﷺ حين توفى : سجى ببرد حبرة » رواه البخارى ومسلم .

ثم . . . :

يجوز تقبيل الميت ، إجماعاً ، فقد قبل رسول الله ﷺ عثمان ابن مظعون وهو ميت ، وأكب أبو بكر على رسول الله ﷺ بعد موته فقبله بين عينيه وقال : يا نبياه ، يا صفياه !!

المبادرة بتجهيزه ، متى تحقق موته

من حق الميت على الأحياء ، أن يسرعوا بتجهيزه :

وذلك لما رواه أبو داود أن طلحة بن البراء مرض ، فأتاه النبى ﷺ يعوده فقال : « إنى لا أرى طلحة إلا وقد حدث فيه الموت ، فأذنونى به وعجلوا ، فإنه لا ينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرى أهله » .

ولا ينتظر به قدوم أحد ... خوف تغيره ، فقد قال الرسول ﷺ : « يا على . ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفئاً » ...

* * *

تجهيز الميت

والآن : نبين الأحكام الشرعية التي تتعلق بتجهيز الميت .

وتجهيزه عبارة عن غسله ، وتكفينه ، والصلاة عليه ، ودفنه .

وهذه الأمور الأربعة ، واجبة على الحي نحو الميت .

وسوف نتناول بالحديث عنها تفصيلا .

غسل الميت

يرى جمهور الفقهاء أن غسل الميت فرض كفاية : أي إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، لأن رسول الله ﷺ أمر به وحافظ على ذلك المسلمون .

وهذا بالنسبة لموتى المسلمين فقط .

الشهداء

الشهيد : هو الذي قتل بأيدي الكفار ، وهو يجاهد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله . هذا الشهيد : لا يغسل ، ويكفن في ثيابه الصالحة لتكفينه ، ويدفن في دمائه . ولا يغسل منها شيء .

روى أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا تغسلوهم ، فإن كل جرح — أو كل دم — يفوح مسكاً يوم القيامة » .

وقد أمر رسول الله ﷺ بدفن شهداء أحد في دمائهم ، ولم يغسلوا ، ولم يصل عليهم .

قال الشافعي رضى الله عنه : لعل ترك الغسل والصلاة ، لأن يلقوا الله بكلومهم (أى بجراحهم) .

وذلك لما جاء أن ريح دمهم ، كريح المسك . واستغنوا بإكرام الله لهم عن الصلاة عليهم ، مع التخفيف على من بقى من المسلمين ، لما يكون فيمن قاتل من جراحات وخوف عودة العدو ، رجاء طلبهم وهمّهم بأهلهم ، وهمّ أهلهم بهم .

وقيل إن الحكمة من ترك الصلاة عليهم : أن الصلاة إنما تكون على الميت ... أما الشهيد ، فهو حىّ.

ومصداق ذلك قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وقيل إن الصلاة على الميت شفاعة له ، والشهداء قد نالوا هذه الكرامة باستشهادهم ، لأنهم يشفعون لغيرهم .

شهداء يغسلون ويصلى عليهم

هناك أنواع من الشهداء يغسلون ويصلى عليهم ، وقد بينهم لنا الحديث الشريف ... فقد روى جابر بن عتيك أن النبي ﷺ قال : « الشهادة سبع ، سوى القتل فى سبيل الله : المطعون : شهيد ، والغريق : شهيد ، وصاحب ذات الجنب : شهيد ، والمبطون : شهيد ، وصاحب

الحرق : شهيد ، والذى يموت تحت الهدم : شهيد . والمرأة تموت بجمع : شهيدة »[١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما تعدون الشهيد فيكم ؟ قالوا يا رسول الله : من قتل فى سبيل الله فهو الشهيد ، قال إن شهداء أمتى إذن لقليل . قالوا فمن هم يا رسول الله ؟ قال : من قتل فى سبيل الله : فهو شهيد ، ومن مات فى سبيل الله : فهو شهيد ، ومن مات فى الطاعون : فهو شهيد ، ومن مات فى البطن : فهو شهيد ، والغريق : شهيد » .

* * *

وهذا نموذج آخر من الشهداء الذين يغسلون ويكفنون ويصلى عليهم :

عن سعيد بن زيد أن النبى ﷺ قال : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه : فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه : فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله : فهو شهيد » رواه أحمد والترمذى وصححه.

* * *

أما وقد علمنا ، من الذين يغسلون ، والذين لا يغسلون .. فما هى صفة الغسل ؟

---

(١) والمراد بالمطعون : من مات بالطاعون، والغريق : من مات غريقا، والمراد بذات الجنب : القروح، تصيب الإنسان داخل جنبه ، وتنشأ عنها الحمى والسعال ، والمبطون : من مات بمرض البطن ، والمراد بجمع : اى المرأة التى تموت عند الولادة .

صفة الغسل

الواجب فى غسل الميت أن يعمم بدنه بالماء مرة واحدة ، ولو كان جنباً أو حائضاً .

والمستحب فى ذلك أن يوضع الميت فوق مكان مرتفع ، ويجرد من ثيابه ، ويوضع عليه ساتر يستر عورته ، ما لم يكن صبياً . ولا يحضر عند غسله إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره .

أما غاسل الميت فينبغى أن يكون ثقة ، أميناً ، صالحاً ، لينشر ما يراه من الخير ، ويستر ما يراه من الشر .

فقد قال رسول الله ﷺ : « ليغسل موتاكم المأمونون » رواه ابن ماجة .

كيفية الغسل

يبدأ الغاسل أولا بعصر بطن الميت عصراً خفيفاً ، لإخراج ما عسى أن يكون بها من الفضلات ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة ، على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته ، (فإن لمس العورة حرام ، للحى والميت ، على حد سواء) ، ثم يوضئه وضوء الصلاة بعد ذلك ، لقول رسول الله ﷺ : « إبدأ بميامنها ، ومواضع الوضوء منها » ، ثم يغسله بعد ذلك ثلاثاً بالماء والصابون ، أو الماء الخالص ، مبتدئاً باليمين ، فإن رأى الزيادة عن الثلاث — بعدم حصول الإنقاء بها أو لشىء آخر — غسله خمساً أو سبعاً .

فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إغسلنها وتراً : ثلاثاً ، أو خمساً ، أو سبعاً ، أو أكثر من ذلك ، إن رأين » .

فإذا كان الميت ، أنثى : ندب نقض شعرها وغسله ، وأعيد تضفيره ؛ وأرسل خلفها ...

فى حديث أم عطية : « أنهن جعلن رأس ابنة النبى ﷺ ثلاثة قرون ، قلت : نقضنه وجعلنه ثلاثة قرون ؟ قالت : نعم » .

فإذا فرغ من غسل الميت ، جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبتل أكفانه ، ووضع عليه الطيب .. قال رسول الله ﷺ : « إذا أجمرتم الميت فأوتروا » رواه البيهقى والحاكم وابن حبان ، وصححاه .

وقال أبو وائل : كان عند على رضى الله عنه مسك ، فأوصى أن يحنّط به وقال : هو فضل حنوط رسول الله ﷺ .

ويكره تقليم أظفار الميت أو أخذ شيء من شعر شاربه أو إبطه أو عانته ، وإذا خرج من بطنه شيء من النجاسات ، وجب تطهيره من هذه النجاسة .

وحكمة وضع الكافور والروائح الطيبة عند الغسل ، لأنه وقت تحضر فيه الملائكة .

والغسل للميت ، إذا كان الماء موجوداً ، فإذا عدم الماء ، فإنه ييمم ، كما جاء فى قول الله تبارك وتعالى : « فإن لم تجدوا ماء فتيمموا » ولقول رسول الله ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

وكذلك ييمم الميت، إذا كان الجسم متحرقا، بحيث لو غسل : لتهرى.

الكفن

بعد ما فرغنا من الكلام عن غسل الميت ، فإن تكفينه بما يستره – ولو كان ثوباً واحداً – فرض كفاية .

ويستحب فى الكفن أن يكون حسنا ، نظيفا ، ساتراً للبدن ....

لما رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه عن أبى قتادة أن النبى ﷺ قال : « إذا ولى أحدكم أخاه ، فليحسن كفنه » .

وأن يكون الكفن أبيض ، لما رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « البسوا من ثيابكم البيض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم » .

وأن يجمر ، ويبخر ، ويطيب ... لما رواه أحمد والحاكم وصححه عن جابر : أن النبى ﷺ قال : « إذا أجمرتم الميت فأجمروه ثلاثاً » .

وأوصى أبو سعيد وابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم أن تجمر أجفانهم بالعود .

وأن يكون الكفن ثلاث لفائف للرجل ، وخمس لفائف للمرأة . . . لما رواه الجماعة عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كُفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية جدد ، ليس فيها قميص ولا عمامة » . قال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم .

وقال سفيان الثورى : يكفن الرجل فى ثلاثة أثواب : إن شئت فى قميص ولفافتين ، وإن شئت فى ثلاث لفائف .

ويجزئ ثوب واحد ، إن لم يوجد ثوبان .

والثوبان يجزئان ، والثلاثة — لمن وجد — أحب إليهم ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحاق ، وقالوا : تكفن المرأة فى خمسة أثواب .

وعن أم عطية : « أن النبى ﷺ ناولها إزاراً ودرعاً ، وخماراً وثوبين » .

وقال ابن المنذر : أكثر من تحفظ عنه من أهل العلم . يرى أن تكفن المرأة فى خمسة أثواب .

تكفين المحرم

إذا مات المحرم . غسل كما يغسل غيره ممن ليس محرما ، وكفن فى فى ثياب إحرامه ، ولا تغطى رأسه ، ولا يطيّب ، لبقاء حكم الإحرام ..

لما رواه الجماعة عن ابن عباس قال : بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته ، فوقصته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تحنطوه ، ولا تخمروا رأسه ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة ملبيا » !!

المغالاة فى الكفن

تكره المغالاة فى الكفن :

لقول رسول الله ﷺ : « لا تغالوا فى الكفن ، فإنه يسلب سلبا سريعا » رواه أبو داود ، وفى إسناده أبو مالك .

وعن حذيفة قال : لا تغالوا فى الكفن ، اشتروا لى ثوبين نقيين .

وقال أبو بكر رضى الله عنه ، اغسلوا ثوبى هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفنونى فيها .

قالت عائشة رضى الله عنها : إن هذا خلق ، قال : إن الحى أولى بالجديد من الميت . إنما هو للمهلة[1] .

ويحرم على الرجال أن يكفنوا فى الحرير . ويكره للنساء ذلك .

قال أحمد : لا يعجبنى أن تكفن المرأة فى شىء من الحرير .

وكره ذلك : الحسن ، وابن المبارك ، وإسحاق .

قال ابن المنذر : ولا أحفظ عن غيرهم خلافه .

صلاة الجنازة

الواجب الثالث بعد الغسل والتكفين : هو الصلاة على الميت :

وقد اتفق أئمة الفقه على أن الصلاة على الميت فرض كفاية ، لأمر رسول الله ﷺ بها ، ولمحافظة المسلمين عليها .

فضلها

روى الجماعة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من تبع جنازة وصلى عليها ، فله قيراط ومن تبعها حتى يفرغ منها ، فله قيراطان ، أصغرهما مثل أحد ، أو أحدهما مثل أحد » .

---

(١) المهلة : القيح السائل من الميت .

وروى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : يا عبد الله بن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من خرج مع جنازة من بيتها ، وصلى عليها ، ثم تبعها حتى تدفن . كان له قيراطان من أجر ، كل قيراط مثل أحد . ومن صلى عليها ثم رجع . كان له مثل أحد » .

فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خباباً إلى عائشة يسألها عن قول أبى هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت فقال : قالت عائشة : صدق أبو هريرة . فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد فرطنا فى قراريط كثيرة .

شروطها

يشترط فيها الشروط التى تفرض فى سائر الصلوات المكتوبة : من الطهارة الحقيقية ، والطهارة من الحدث الأكبر ، والأصغر ، واستقبال القبلة ، وستر العورة :

روى مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يقول : لا يصلى الرجل على الجنازة إلا وهو طاهر .

وتختلف عن سائر الصلوات المفروضة ، فى أنه لا يشترط فيها الوقت ، بل تؤدى فى جميع الأوقات متى حضرت ، ولو فى أوقات النهى عند الأحناف والشافعية .

وكره أحمد وابن المبارك وإسحاق ، الصلاة على الجنازة فى وقت الطلوع والاستواء والغروب ، إلا إن خيف عليها التغير .

أركانهـــا

ولصلاة الجنازة أركان لابد منها .. إذا فقد منها ركن : وقعت غير صحيحة وهى كما يلى :

* النية : لقول الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » وقول رسول الله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

* القيام : للقادر عليه ، وهو ركن عند جمهور العلماء .. فلا تصح الصلاة على الميت لمن صلى عليه راكباً أو قاعداً من غير عذر .

قال فى « المغنى » : ولا يجوز أن يصلى على الجنائز وهو راكب ، لأنه يفوت القيام الواجب . وهذا قول أبى حنيفة والشافعى وأبى ثور . ولا أعلم فيه خلافاً .

ويستحب أن يقبض بيمينه على شماله أثناء القيام ، كما يفعل فى الصلاة. وقيل : لا . والأول أولى .

* التكبيرات الأربع ، لما رواه البخارى ومسلم عن جابر أن النبى ﷺ صلى على النجاشى فكبر أربعاً . قال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ . وغيرهم يرون التكبير على الجنازة أربع تكبيرات ، وهو قول سفيان ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق .

أما رفع اليدين عند التكبير : فالسنة عدم رفعها فى صلاة الجنازة ،

إلا فى أول تكبيرة فقط . لأنه لم يأت عن النبى ﷺ أنه رفع فى شىء من تكبيرة الجنازة إلا فى أول تكبيرة فقط .

قال الشوكانى : والحاصل أنه لم يثبت فى غير التكبيرة الأولى شىء يصلح للاحتجاج به عن النبى ﷺ . وأفعال الصحابة وأقوالهم ، لا حجة فيها ، فينبغى أن يقتصر على الرفع عند تكبيرة الإحرام ، لأنه لم يشرع فى غيرها إلا عند الانتقال من ركن إلى ركن ، كما فى سائر الصلوات ، ولا انتقال فى صلاة الجنازة .

* قراءة الفاتحة سراً ، بعد تكبيرة الإحرام ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بعد التكبيرة الثانية .

لما رواه الشافعى فى مسنده عن أبى إمامة بن سهل : أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : « أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً فى نفسه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء فى الجنازة ، فى التكبيرات ، ولا يقرأ فى شىء منهن ، ثم يسلم سراً فى نفسه » .

قال فى الفتح ، وإسناده صحيح ، وروى البخارى عن طلحة بن عبد الله قال : صليت مع ابن عباس على جنازة ، فقرأ بفاتحة الكتاب ، فقال : إنها من السنة .

ورواه الترمذى وقال : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من الصحابة ، وغيرهم يختارون أن يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحاق .

وقال بعضهم : لا يقرأ فى الصلاة على الجنازة ، إنما هو الثناء على الله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ ، والدعاء للميت ، وهو قول الثورى وغيره من أهل الكوفة .

ومن حجج القائلين بفرضية القراءة . أن الرسول ﷺ سماها صلاة ... بقوله : « صلوا على صاحبكم » وقال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن » .

وتؤدى الصلاة والسلام على رسول الله بأية صيغة ، ولو قال : اللهم صل على محمد ، لكفى . واتباع المأثور أفضل ، مثل :

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد .

ويؤتى بها بعد التكبيرة الثانية ، كما هو الظاهر ، وإن لم يرد ما يدل على تعيين موضعها .

* **الدعاء ـ بعد التكبيرة الثالثة** وهو ركن ، باتفاق الفقهاء ، لقول رسول الله ﷺ : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » رواه أبو داود والبيهقى وابن حبان وصححه . وهو يتحقق بأى دعاء مهما قل .

والمستحب فيه أن يدعو بأية دعوة من الدعوات المأثورة الآتية :

قال أبوهريرة : دعا رسول الله ﷺ فى الصلاة على الجنازة فقال : « اللهم أنت ربها ، وأنت خلقتها ، وأنت رزقتها ، وأنت

هديتها للإسلام ، وأنت قبضت روحها ، وأنت أعلم بسرها وعلانيتها ، جئنا شفعاء له ، فاغفر له ذنبه » .

وعن واثلة بن الأسقع قال : صلى بنا النبي ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول : « اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك ، فقه من فتنة القبر وعذاب النار ، وأنت أهل الوفاء والحق . اللهمّ فاغفر له وارحمه فإنك أنت الغفور الرحيم » رواهما أحمد وأبو داود .

وعن عوف بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ وقد صلى على جنازة — يقول : « اللهم اغفر له ، وارحمه ، واعف عنه ، وعافه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بماء وثلج وبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ،وأبدله داراً خيراً من داره ، وأهلا خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وقه فتنة القبر وعذاب النار » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقال : « اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وشاهدنا وغائبنا ، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان . اللهم لا تحرمنا ولا تضلنا بعده » رواه أحمد وأصحاب السنن .

فإذا كان المصلى عليه طفلا . استحب أن يقول المصلى : « اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً وذخراً » رواه البخارى والبيهقى من كلام الحسن .

قال النووى : وإن كان صبياً أو صبية . اقتصر على ما فى حديثه : « اللهم اغفر لحينا وميتنا .. إلخ » وضم إليه : « اللهم اجعله فرطاً لأبويه ، وسلفاً وذخراً ، وعظة واعتباراً وشفيعاً ، وثقِّل به موازينهما ، وأفرغ الصبر على قلوبهما ، ولا تفتنهما بعده ، ولا تحرمهما أجره » .

واستحب العلماء ، الدعاء أيضاً بعد التكبيرة الرابعة :

لما رواه أحمد عن عبد الله بن أبى أوفى أنه ماتت له ابنة فكبر عليها أربعاً ، ثم قام بعد الرابعة قدر ما بين التكبيرتين يدعو ثم قال : كان رسول الله ﷺ يصنع فى الجنازة هكذا .

وقال الشافعى : يقول بعدها : « اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده » .

وقال ابن أبى هريرة : كان المتقدمون يقولون بعد الرابعة : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

* السلام :

والسلام ، ركن من أركان صلاة الجنازة ، وذلك لأن تحليل الصلاة ، التسليم ، وصلاة الجنازة ضمن الصلوات . وقال ابن مسعود : التسليم على الجنازة ، مثل التسليم فى الصلاة ...

وأقله : السلام عليكم ، أو سلام عليكم .

كيف نصلى على الجنــازة

وعلى الجملة ، فهذا بيان بترتيب الخطوات التى تؤدى بمقتضاها صلاة الجنازة :

بعد استيفاء شروط صحة الصلاة من طهارة وستر للعورة واستقبال للقبلة . يقف المصلى ناوياً الصلاة على من حضر من الموتى ، رافعاً يديه مع تكبيرة الإحرام ، ثم يضع يده اليمنى على اليسرى ، ويشرع فى قراءة الفاتحة ، ثم يكبر ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يكبر ، ثم يدعو للميت ، ثم يكبر ، ثم يدعو ، ثم يسلم .

موقف الامام

من السنة أن يقف الإمام عند رأس الرجل ، ويقف عند وسط المرأة . لحديث أنس : أنه صلى على جنازة رجل ، فقام عند رأسه ، فلما رفعت ، أتى بجنازة امرأة ، فصلى عليها ، فقام وسطها ، فسئل عن ذلك ، وقيل له : أهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الرجل حيث قمت ، ومن المرأة حيث قمت ؟ قال : نعم . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه . قال الطحاوى : وهذا أحب إلينا ، فقد قوّته الآثار التى رويناها عن النبى ﷺ .

* * *

ثم . إذا اجتمع أكثر من ميت، وكانوا ذكوراً أو إناثاً . صفوا واحداً بعد واحد بين الإمام والقبلة ليكونوا جميعاً بين يدى الإمام ، ووضع الأفضل مما يلى الإمام ، وصلى عليهم جميعاً صلاة واحدة .

وإن كانوا رجالا ونساء . جاز أن يصلى على الرجال وحدهم ، والنساء وحدهم .

وجاز أن يصلى عليهم جميعاً ، وصفّت الرجال أمام الإمام ، وجعلت النساء مما يلى القبلة .

وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه صلى على تسع جنائز (رجال ونساء) ، فجعل الرجال مما يلى الإمام ، وجعل النساء مما يلى القبلة ، وصفهم صفاً واحد .

ووضعت جنازة أم كلثوم بنت على (امرأة عمر) ، وابن لها يقال له زيد — والإمام يومئذ سعيد بن العاص ، وفى الناس يومئذ ابن عباس وأبو هريرة ، وأبو سعيد ، وأبو قتادة ، فوضع الغلام مما يلى الإمام ، فقال رجل : فأنكرت ذلك ، فنظرت إلى ابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد ، وأبى قتادة ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هى السنة . رواه النسائى والبيهقى . قال الحافظ : وإسناده صحيح .

وفى الحديث أن الصبى إذا صلى عليه مع امرأة كان الصبى مما يلى الإمام ، والمرأة مما يلى القبلة .

وإن كانت فيه رجال ونساء ، وصبيان : كان الصبيان مما يلى الرجال .

* * *

صفوف الصلاة على الجنازة

يستحب أن يصف المصلون على الجنازة ثلاثة صفوف ، وأن تكون مستوية .

لما رواه مالك بن هبيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن يموت فيصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له » فكان مالك بن هريرة يتحرى إذا قل أهل الجنازة أن يجعلهم ثلاثة صفوف . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه والحاكم وصححه .

قال أحمد : أحب إذا كان فيهم قلة . أن يجعلهم ثلاثة صفوف. قالوا : فإن كان وراءه أربعة كيف يجعلهم ؟ قال : يجعلهم صفين ، فى كل صف رجلين . وكره أن يكونوا ثلاثة ، فيكون فى صف رجل واحد .

فضل صلاة الجمع الكثير

يستحب صلاة الجمع ، الكثير على الجنازة ، كلما أمكن ذلك ، ففى صلاتهم على الميت ، شفاعة له . . بهذا صرحت الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له ، إلا شفعوا فيه » رواه مسلم والنسائى والترمذى ، وعنده : « مائة فما فوقها » .

وعن كريب : أن ابن عباس رضى الله عنهما مات له ابن بقديد (أو بعسفان) فقال: يا كريب . انظر ما اجتمع له من الناس؟ قال : فخرجت ، فإذا ناس قد اجتمعوا ، فأخبرته ، فقال تقول هم أربعون؟ قال : قلت : نعم، قال : أخرجوه ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه » رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ما من رجل يصلى عليه مائة إلا غفر الله له » . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن الحكم بن فروخ قال : « صلى بنا أبو المليح على جنازة فظننا أنه قد كبر ، فأقبل علينا بوجهه ، فقال : أقيموا صفوفكم ولتحسن شفاعتكم » .

قال أبو المليح : « حدثنى عبد الله عن إحدى أمهات المؤمنين — وهى ميمونة زوج النبي ﷺ — قالت : أخبرنى النبى ﷺ ، قال : « ما من ميت يصلى عليه أمة من الناس إلا شفعوا فيه » ، فسألت أبا المليح عن الأمة ؟ قال : أربعون . رواه النسائى .

وعن مالك بن هبيرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يموت فيصلى عليه ثلاث صفوف من المسلمين إلا أوجب » وكان مالك إذا استقبل أهل الجنازة ، جزأهم ثلاث صفوف

لهذا الحديث . رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه ، والترمذى وقال : حديث حسن .

* * *

لا قضاء على من فاته بعض التكبير مع الإمام فى صلاة الجنازة ، وهذا هو الرأى المعتمد :

روى عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله إنى أصلى على الجنازة ، ويخفى على بعض التكبير . قال : « ما سمعت ، فكبرى ، وما فاتك فلا قضاء عليك » .

وقال ابن عمر والحسن : لا يقضى مافات من تكبير الجنازة ، ويسلم مع الإمام . وقال أحمد : إذا لم يقض ، لم يبال .

* * *

واتفقت كلمة العلماء على أن المسلم ، يصلى عليه ، ذكراً كان أو أنثى ، صغيراً كان أو كبيراً .

الصلاة على السقط

إذا ولد مولود ولم يمض على حمله أربعة أشهر ، فإنه لا يغسل ولا يصلى عليه ، ويلف فى خرقة ، ويدفن من غير خلاف بين جمهور الفقهاء ، فإذا ولد لأربعة أشهر فصاعداً ، فإنه يغسل ويصلى عليه ، لقوله ﷺ : (والسقط يصلى عليه) ؛ وذلك لأنه إذا بلغ أربعة أشهر فى الرحم ، يصير نسمة نفخ فيها الروح ، فيصلى عليه .

ولا يصلى على كافر

لا تجوز الصلاة على الكافر . وذلك لما صرحت به آيات الكتاب الكريم ، قال تعالى : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون) ، ولقوله جل شأنه : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى ، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) .

الصلاة على الميت بعد دفنه

تجوز الصلاة على الميت بعد الدفن ، فى أى وقت ، ولو كان قد صلى عليه قبل دفنه !

لما رواه يزيد بن ثابت قال : « خرجنا مع النبي ﷺ ، فلما وردنا « البقيع » ، إذا هو بقبر جديد ، فسئل عنه ، فقيل : فلانة ، فعرفها ، فقال : ألا آذنتمونى بها ؟ قالوا : يا رسول الله كنت قائلا صائما فكرهنا أن نؤذيك ، فقال : « لا تفعلوا . لا يموتن فيكم ميت ما كنت بين أظهركم إلا آذنتمونى به ، فإن صلاتى عليه رحمة ثم أتى القبر ، فصفنا خلفه ، وكبر عليه أربعاً » . رواه أحمد والنسائى والبيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

قال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، من أصحاب

النبي ﷺ وغيرهم ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق رضى الله عنهم .

وفى الحديث : أن الرسول ﷺ صلى على صاحبة القبر بعد ما صلى عليها أصحابه قبل الدفن ، لأنهم ما كانوا ليدفنوها قبل الصلاة عليها .

قال الفقهاء

وفى صلاة أصحاب الرسول ﷺ معه على القبر : ما يدل على أن ذلك ليس خاصاً به ، صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن القيم : ردت هذه السنن المحكمة : بالمتشابهة من قوله : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » . وهذا حديث صحيح .

والذى قاله : هو الذى صلى على القبر ، فهذا قوله ، وهذا فعله .

ولا يناقض أحدهما الآخر .. فإن الصلاة المنهى عنها إلى القبر ، غير الصلاة التى على القبر .. فهذه صلاة الجنازة على الميت ، التى لا تختص بمكان .. بل إن فعلها فى غير المسجد، أفضل من فعلها فيه .

فالصلاة عليه على قبره : من جنس الصلاة عليه على « نعشه » ... فإنه المقصود بالصلاة فى الموضِعَيْنِ . ولا فرق بين كونه على « النعش » وعلى الأرض ، وبين كونه فى بطنها .. بخلاف سائر الصلوات ، فإنها لم تشرع فى القبور ، ولا إليها ، لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد .

الصلاة على الغائب

تجوز الصلاة على من غاب من أموات المسلمين كما هى جائزة على من حضر من أمواتهم .

وكيفيتها : أن يستقبل المصلى القبلة ، وينوى الصلاة عليه ، ويكبر ، ويفعل مثل ما يفعل فى صلاة الجنازة .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى للناس « النجاشى » فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى ، فصَفَّ أصحابه ، وكبر أربع تكبيرات .

قال ابن حزم : ويصلى على الميت الغائب بإمام وجماعة .

صلاة النساء على الجنازة

يجوز للمرأة أن تصلى على الجنازة ، مثل الرجل ، سواء صلت منفردة ، أو صلت مع الجماعة . فقد انتظر عمرُ أمَّ عبد الله حتى صلت على « عتبة » وأمرت عائشة رضى الله عنها ، أن يؤتى بسعد بن أبى وقاص لتصلى عليه .

السير بالجنازة

هناك أمور يحسن بيانها تتعلق بحمل الجنازة والسير بها . نثبتها فيمايلى :

وصى الشارع الحكيم بتشييع الجنازة وحملها ، ومن السنة أن يحملها من جميع جوانبها ، حتى ينال ثواب جهاتها المختلفة .

روى ابن ماجه والبيهقى وأبو داود والطيالسى عن ابن مسعود قال : « من اتبع جنازة فليحمل بجوانب السرير كلها ، فإنه من السنة . ثم إن شاء فليتطوع ، وإن شاء فليدَع » .

والمراد بسرير الميت : نعشه .

وقد رغَّب النبي ﷺ فى إتيان هذا البر العظيم حيث قال : « عودوا المريض وامشوا مع الجنازة : تذكركم الآخرة » رواه أحمد ، ورجاله ثقات .

ويستحب الإسراع بها .. وذلك لما رواه الجماعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « أسرعوا بالجنازة » فإن تك صالحة : فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك : فشر تضعونه عن رقابكم » .

وروى البخارى فى التاريخ أن النبى ﷺ أسرع حتى تقطعت نعالنا يوم مات سعد بن معاذ .

والمقصود بالإسراع بها : عدم البطء الذى قد يدعو إلى التبختر .

وبناء عليه : فينبغى أن يعرف ألا يؤدى الإسراع إلى فسادها أو المشقة على مشيّعيها .

المشى مع الجنازة

اختار جمهور العلماء : المشى أمامها ، وقالوا: إنه الأفضل .. لأن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر : كانوا يمشون أمامها . رواه أحمد وأصحاب السنن .

ويرى بعض الفقهاء أن المشى خلفها أفضل .. لأن ذلك هو المفهوم من أمر رسول الله ﷺ باتباع الجنازة ، والمتبع : هو الذى يمشى خلفه .

والظاهر — والله أعلم — أن الكل جائز (ولكلٍّ وجهةٌ هو موليها ، فاستبقوا الخيرات) .

أشياء تكره عند الجنازة

هناك أشياء تكره ، رأينا أن ننبه إليها ، لكراهة فعلها عند الجنازة ، ولخفائها على كثير من الناس ، ولانتشار فعلها .

رفع الصوت سواء كان ذلك بذكر أو قراءة أو كان بغيرهما .

وذلك لما رواه ابن المنذر عن قيس بن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث : عند الجنائز ، وعند الذكر ، وعند القتال » .

ومن البدع : أن يقول قائل خلف الجنازة : استغفروا للميت . بهذا قال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير والحسن والنخعى ، وأحمد ، وإسحاق والأوزاعى .

يقول الإمام النووى رضى الله عنه : واعلم أن الصواب ما كان عليه السلف من السكوت حال السير مع الجنازة ، فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما ، لأنه أسكن لخاطره ، وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة .. وهو المطلوب فى هذا الحال . فهذا هو الحق ، ولا تغتر بكثرة من يخالفه .

* * *

مما سبق يتبين أن رفع الصوت عند الجنازة : أمر كرهه الشارع ، وعلينا أن نلتزم بما أتانا به الشرع. ومن أراد أن يذكر الله : فليذكره تعالى فى نفسه ، تضرعا وخيفة ، حتى لا يفوته الهدى النبوى الشريف .

كذلك من الأشياء المكروهة عند الجنازة ونهى الشرع عنها ، تلك العادة الجاهلية ... فقد كانوا يتبعون الجنازة بالنار : أى يحملون مشاعل النار معها .

قال الإمام البيهقى رضى الله عنه : جاء فى وصية عائشة وعبادة ابن الصامت وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، وأسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهم ، « أن لا تتبعونى بنار » .

وروى ابن ماجه أن أبا موسى الأشعرى حين حضره الموت قال « لا تتبعونى بمجمر » (وهو ما يوضع فيه الجمر) ... قالوا : يا أباموسى ، أو سمعت فيه شيئاً ؟ قال نعم .. من رسول الله ﷺ .

أما إذا كان دفن الميت ليلا : فلا بأس باصطحاب ما يضئ الطريق إلى المقبرة .

فقد ورد هذا عن رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام الترمذى عن ابن عباس أن النبى ﷺ دخل قبراً ليلا ، فأسرج له سراج .

كذلك يكره لمن اتبع الجنازة أن يقعد قبل أن توضع الجنازة على الأرض ، فإن فعل : أُمر بالقيام حتى توضع الجنازة .

كذلك يكره اتباع النساء للجنازة ، وهذا عمل قد عمّت به البلوى فى البلاد : قُرًى كانت أو مُدُناً .. والشرع يكرهه ، والناس فى غفلة .

قالت الصحابية الجليلة أم عطية رضى الله عنها : نُهينا عن أن نتبعَ الجنائز ، ولم يعزم علينا : أى لم يوجب علينا .

دفن الميت

بعد الفراغ من الحديث عن تغسيل الميت ، وتكفينه ، والصلاة عليه، وتشييعه . نبين هنا حكم دفن الميت وما يتعلق بذلك .

أجمعت كلمة الفقهاء على أن دفن الميت ومواراة جسده إلى التراب : فرض كفاية .. إذا قام به البعض : سقط عن الباقين .

وذلك لما صرحت به آيات القرآن .. قال تعالى : (ثم أماته فأقبره) ، وقال جل شأنه : (ألم نجعل الأرض كفاتا ، أحياء وأمواتاً) ؟ أى جامعة للأموات والأحياء ؟ فالأموات فى بطنها والأحياء على ظهرها .

وما قصة ابنىْ آدم عن بالنا ببعيدة .. قال تعالى : (فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين) .

توضيـــــــح

يظن الكثير من الناس أن دفن الميت ليلا قد يؤذيه ، فيظل طوال حياته خائفاً ! !

وهذا افتراء على شرع الله ، ولا يقول بهذه المسألة إلا كل من غفل عن قوله جل شأنه : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل

عليهم الملائكة ألا تخـافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدّعون ، نزلا من غفور رحيم) .

ولو علم هؤلاء أن الميت قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء وعالم البرزخ ، وأن هذا العالم لا يخضع لقوانين هذه الدنيا .. لو علموا هذا : ما اجترأوا على أن يشرعوا فى دين الله ما ليس منه .

ويرى جمهور علماء المسلمين أن الدفن بالليل : كالدفن بالنهار ، سواء بسواء .

فقد دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل الذى كان يرفع صوته بالذكر : ليلا .

ودفن علىّ فاطمة رضى الله عنها : ليلا .

وكذلك دُفن أبو بكر وعثمان وعائشة وابن مسعود . رضى الله عنهم أجمعين .

الحكمة من الدفن

والحكمة من دفن الميت : أن يوارَى الميت فى حفرة تحجب ريحته ، وتمنع السباع والطيور عنه .

ومن هنا : ينبغى تعميق القبر . والدفن فيه : إكرام لابن آدم . الذى أوصى الله تعالى به ، إذ يقول : (ولقد كرمنا بنى آدم) .

ما يستحب للميت

يستحب توجيه الميت فى قبره إلى القبلة ، والدعاء له ، وحل أربطة الكفن .

والسنة التى جرى عليها العلم : أن يجعل الميت فى قبره على جنبه الأيمن ، ووجهه تجاه القبلة ..

ويقول واضعه : (باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ﷺ) .

ثم يحل أربطة الكفن .

كذلك يستحب الدعاء للميت بعد الفراغ من دفنه ، وسؤال التثبيت له ، لأنه يسأل فى هذه الحالة .

فعن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت : وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت » فإنه الآن ، يسأل » رواه أبو داود والحاكم . وصححه البزار .

ما نهى عنه الشرع

نهى الشارع الحكيم عن الذبح عند القبر .. لما فى ذلك من المباهاة ، والرياء ، والفخر :

فقد روى أبو داود عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عقر فى الإسلام » .

قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة .

قال الخطابى : كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الكريم ويقولون : نجازيه على فعله ، لأنه كان يعقرها فى حياته ، فيطعمها الأضياف ، فنحن نعقرها عند قبره ، لتأكلها السباع والطير ، فيكون مطعما بعد مماته ، كما كان مُطعماً فى حياته !!

كذلك نهى الشارع عن الجلوس على القبر ، والاستناد إليه ، والمشى عليه .

وذلك لما رواه عمرو بنُ حزم قال : رآنى رسول الله ﷺ متكئاً على قبر ، فقال : « لا تؤذ صاحب هذا القبر » رواه أحمد بإسناد صحيح .

وعن أبى هُريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده .. خير له من أن يجلس على قبر » . رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

دفن أكثر من واحد فى قبر

إذا تعذر إفراد كل ميت بقبر ، لكثرة الموتى وقلة الدافنين أو ضعفهم : فإنه فى هذه الحالة يجوز دفن أكثر من واحد فى قبر واحد .

لما رواه أحمد والترمذى وصححه : أن الأنصار جاءوا إلى النبى ﷺ يوم أُحد ، فقالوا : يا رسول الله : أصابنا جرح وجهد فكيف تأمرنا؟ فقال : « احفروا ، وأوسعوا ، وأعمقوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة فى القبر : قالوا : فأيهم نقدم ؟ قال : أكثرهم قرآناً » .

التأدب مع أموات المسلمين

لا يجوز سب أموات المسلمين ، أو ذكر مساوئهم ، وذلك لأنهم فى دار من الأليق والأفضل أن يذكروا فيها بالرحمة .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضَوْا إلى ما قدموا » .

أما المسلمون المعلنون بفسق أو بدعة ، أو عمل فاسد فإنه يباح ذكر مساويهم ، إذا كان فيه مصلحة تدعو إليه. كالتحذير من حالهم ، والتنفير من قولهم ، وترك الاقتداء بهم ...

أما إذا لم يكن فيه مصلحة : فلا يجوز .

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال النبي ﷺ : « وجبت » ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال: وجبت ، فقال عمر رضى الله عنه « ما وجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له . أنتم شهداء الله فى الأرض » .

نقل الميت

يحرم عند الشافعية نقل الميت من بلد إلى بلد إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة ، أو بيت المقدس ، فإنه يجوز النقل إلى إحدى هذه البلاد .. لشرفها وفضلها .

ولو أوصى بنقله إلى غير هذه الأماكن الفاضلة : لا تنفذ وصيته، لما فى ذلك من تأخير دفنه ، وتعرضه للتغيير .

ويحرم كذلك نقله من القبر إلا لغرض صحيح : كأن دفن من غير غسل ، أو إلى غير القبلة أو لحق القبر سيل أو نداوة .

قال فى المنهاج : ونبشه بعد دفنه للنقل وغيره : حرام ، إلا لضرورة: كأن دفن بلا غسل ، أو فى أرض أو ثوب مغصوبين أو وقع مال ، أو دفن لغير القبلة .

وعند المالكية : يجوز نقله من مكان إلى مكان آخر . قبل الدفن وبعده ، لمصلحة : كأن يخاف عليه أن يغرقه البحر ، أو يأكله السبع ، أو لزيارة أهله له، أو لدفنه بينهم ، أو رجاء بركته للمكان المنقول إليه .. ونحو ذلك .

فالنقل حينئذ جائز ، ما لم تنتهك حرمة الميت بانفجاره ، أو تغيره ، أو كسر عظمه .

ويستحب دفن الشهيد حيث قتل ...

وذلك لما روى عن النبي ﷺ قال : « ادفنوا القتلى فى مصارعهم ».

وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ أمر بقتلى أحد أن يردوا إلى مصارعهم » .

قضاء الدين

الإسلام : دين الوفاء ، والحياء .. وإن لكل دين خُلقاً ، وخُلق الإسلام : الحياء .

ومن القضايا الخطيرة فى الإسلام : قضيّة المال .. فكل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه .

ومن ثَمّ : جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى باب الدَّيْن تحث حثاً أكيداً على أدائه ، وعدم المماطلة فى ذلك الأداء ...

بل إن رسول الله ﷺ « كان يستعيذ بالله من الدَّيْن ، ويقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبّة الدَّيْن وقهر الرجال » .

بل تزيد دقة الإسلام فى التحذير من المماطلة فى الديون إلى درجة أن الرسول ﷺ ، كان يستعيذ بالله من الكفر والدَّيْن :

روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : « أعوذ بالله من الكفر والدَّيْن ، فقال رجل : يا رسول الله ، أتعدل الكفر بالدَّيْن ؟ قال : نعم » رواه النسائى والحاكم .

الدَّيْن : مذلة :

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : الدَّيْن راية الله فى الأرض ، فإذا أراد الله أن يذل عبداً أوضعه فى عنقه » رواه الحاكم .

وقد وصى رسول الله ﷺ أحد أصحابه هذه الوصية فقال له :
« أقِلّ من الذنوب : يهُن عليك الموتُ ، وأقِلّ من الديْن : تعش حراً » .
رواه البيهقى .

وصية حكيم لابنه :

وقال أحد الحكماء لابنه وهو يعظه ، يا بنى : لقد ذقت الطيبات كلها ، فلم أجد أطيب من العافية ، وتجرعت المرارة كلها ، فلم أجد أمرّ من الحاجة إلى الناس ، وحملت الصخر والحديد ، فلم أجد أثقل من الديْن !!

وقد عدّ رسول الله ﷺ الدين نوعاً من أنواع الخوف بعد الأمن :

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : الديْنُ ، رواه أحمد .

البراءة من ثلاثة :

عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من فارق روحه جسده وهو برئ من ثلاث دخل الجنة : الغلول ، الديْن ، والكبر »(١).

---

(١) الغلول : أى السرقة من الغنم — والكبر : احتقار الناس ورفض الحـق .

الديْن والنية :

لنيَّة الأداء عند الله : إذن بتيسير ، ولنية الإتلاف : إذن بتعسير .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من أخذ أموال الناس يريد أداءها : أدى الله عنه ، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها : أتلفه الله » . رواه البخارى ، وابن ماجه وغيرهما .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تداين ، فقيل لها : مالك وللديْن؟ ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه ، إلا كان له من الله عوْن ، فأنا ألتمس ذلك العون ».

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيمَّا رجل تديَّن ديْناً وهو مجمع أن لا يوفيه إياه : لقِى الله سارقاً » . رواه ابن ماجه والبيهقى .

خطورة الديْن :

عن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعداً حيث توضع الجنائز ، فرفع رأسه قِبَل السماء ، ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : « سبحان الله ! سبحان الله ! ما أنزل من التشديد ، قال : فعرفنا وسكتنا ، حتى إذا كان الغد ، سألنا رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال : فى الديْن : والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ، ثم عاش ، ثم قتل ، ثم عاش ثم قتل ، وعليه ديْن ، ما دخل الجنة حتى يقضى دينه » . رواه النسائى والطبرانى فى الأوسط والحاكم واللفظ له .

الصدق والأمانة : فى الوفاء

هذا حديث نسوقه بطوله لما فيه من عظات بالغات ، وعبر طيبات أحرى بكل عاقل أن يتصف بها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء ، أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيداً ، قال : فائتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلا ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مُسمًّى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجّله ، فلم يجد مركبا . فأخذ خشبة ، فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجّج موضعها ، ثم أتى بها البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار ، فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيداً ، فقلت كفى بالله شهيداً ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له ، فلم أقدر ، وإنى أستودعكها . فرمى بها فى البحر ، حتى ولجت فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، وأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى جئت فيه : قال : هل كنت بعثت إلىّ بشىء . قال أخبرك

أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة . فانصرف بالألف الدينار راشداً .» رواه البخاري.

سمو الاسلام

نظرة الإسلام دائما رفيعة وعالية ، فهو فى باب الدين لا يجد غضاضة من أن يستدين المسلم فى هذه الأمور الثلاثة :

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الدين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تديَّن فى ثلاث خلال :

الرجل تضعف قوّته فى سبيل الله ، فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه الغربة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة » . رواه ابن ماجه .

دين الميت

لعلك أيها القارئ الكريم قد أدركت بما لا يدع مجالا للشك — ما يترتب على الدين من مسئولية ومؤاخذة .

وإليك الآن ما يتعلق بدين الميت .. فاستمع إلى صوت النبوة فى سكينة ووقار : تعلم الخبر اليقين ، واسأل الله النجاة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نفس المؤمن معلقة بدَيْنه حتى يقضى عنه » أى أن أمرها موقوف، لا يحكم لها بنجاة ولا بهلاك ، أو محبوسة عن الجنة ..

وهذا فيمن مات وترك مالا يقضى منه دينه .

أما من مات ولا مال له عازما على القضاء .. فقد ثبت أن الله تعالى يقضى عنه . ومثله من مات وله مال وكان محباً للقضاء ولم يقض من ماله ورثته .

فعند البخارى من حديث أبى هريرة : أن النبي ﷺ قال : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » .

وروى أحمد وأبو نعيم والبزار والطبرانى عن النبى ﷺ قال : « يُدعى بصاحب الدَيْن يوم القيامة حتى يوقف بين يدى الله عز وجل فيقول : « يا ابن آدم : فيم أخذت هذا الدَيْن ، وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ، ولكن أتى علىّ : إما حرق : وإما سرق ، وإما وضيعة ، فيقول الله : صدق عبدى وأنا أحق من قضى عنك ، فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه ، فترجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل ، رحمته » .

وقد كان النبى ﷺ يمتنع عن الصلاة على المديون ، فلما فتح الله عليه البلاد وكثرت الأموال « صلى على من مات مديوناً وقضى عنه » .

وقال فى حديث البخارى : « أنا أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم . فمن

مات وعليه ديْن ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه . ومن ترك مالا فلورثته».

وفي هذا ما يدل على أن من مات مديناً : استحق أن يقضي عنه من بيت مال المسلمين ، ويؤخذ من سهم الغارمين ، أحد مصارف الزكاة ، وأن حقه لا يسقط بالموت .

بل كان رسول الله ﷺ عندما تأتيه الجنازة يسأل ويقول « أعلى صاحبكم ديْن » ؟

عن جابر رضي الله عنه قال : توفي رجل ، فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقلنا : تصلي عليه ، فخطا خطوة ثم قال : أعَليه ديْن ؟ قلنا : ديناران ، فانصرف ، فتحملهما أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران عليّ ، فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرىء منهما الميت ؟ قال نعم ، فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس . قال : فعاد إليه من الغد ، فقال : قد قضيتها ، فقال رسول الله ﷺ : « الآن بردت جلدته » رواه أحمد بإسناد حسن .

وروى عن عليّ رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن ديْنه : فإن قيل عليه ديْن : كف عن الصلاة عليه ، وإن قيل ليس عليه ديْن : صلى عليه ، فأتي بجنازة ، فلما قام ليكبرّ ، سأل رسول الله ﷺ : « هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران ، فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : « صلوا على صاحبكم » ، فقال عليّ رضي الله عنه : هما عليّ يارسول الله ،

برىء منهما ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ، ثم قال لعلى ابن أبى طالب : جزاك الله خيراً ، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك ، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ، ومن فك رهان ميت : فك الله رهانه يوم القيامة ، فقال بعضهم : هذا لعلىّ خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة » رواه الدارقطنى .

وروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى بجنازة ليصلى عليها قال : « هل عليه دين ؟ قالوا : نعم ، فقال النبى ﷺ : « إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين ، فقال : إن صاحب الدين مرتهن فى قبره حتى يقضى عنه دينه » . رواه أبو يعلى والطبرانى .

الرسول يسأل :

عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « هٰهنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : هٰهنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ثم قال : هٰهنا أحد من بنى فلان ؟ فقام رجل فقال : أنا يارسول الله ، فقال : من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين ؟ قال : إنى لم أنوّه بكم إلا خيراً ، إن صاحبكم مأسور بدينه ، فلقد رأيته أدّى عنه حتى ما أحد يطلبه بشىء » . رواه أبو داود والنسائى والحاكم .

بعض ما ورد عن الدين :

وقد وردت أحاديث أخرى فى دين الميت نورد بعضها فيما يلى :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادّ الله فى أمره ، ومن مات وعليه ديْن فليس ثم دينار ولا درهم . ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم : لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه : حبس فى ردغة الخبال(١) حتى يأتى بالمخرج مما قال » . رواه الحاكم .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صاحب الديْن مأسور بديْنه يشكو إلى الله الوحدة » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد — بعد الكبائر التى نهى الله عنها — أن يموت رجل وعليه ديْن لا يدع له قضاء » . رواه أبو داود والبيهقى .

التحذير من مطل الغنى :

رأينا — من باب تتمة الفائدة — أن نبين ما يتعلق بالمماطلة فى دفع الديْن ، خصوصا إذا كان المدين غنيا ..

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مطل الغنى ظلم » .

---

(١) ردغة الخبال : عصارة أهل النار .

ويبين الرسول ﷺ أن مطْل الغنى (أى مماطلته فى أداء الديون) ظلم ، وأن الله تعالى لا يحب ثلاثة .

فعن على رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحب الله الغنى الظلوم ، ولا الشيخ الجهول ، ولا الفقير المختال » .

بل إن الرسول ﷺ يشدد النكير فى مماطلة الدفع فيقول : « ماقدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع » ثم قال : « من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دوابُّ الأرض و « نون » الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط : كتب عليه فى كل يوم وليلة جمعة وشهر : ظلمٌ » . رواه الطبرانى فى الكبير .

* * *

فائدة

كلمات يقولهن المديون والمهموم والمكروب والمأسور :

ما من أحد فى هذه الدنيا إلا وتعتريه الهموم ، وتتناوشه الكروب : فتلك طبيعة الأيام !

جبلت على كدر ، وأنت تريدها صفواً من الأحزان والأكدار
ومكلف الأيام ضـــد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار ! !

إذا كان ذلك كذلك ، فما هو الملجأ ؟ الملجأ أن نردد هذه الأذكار التى جاءتنا من الصادق المعصوم ، فإن فى ترديدها عبادة ، وفى ذكرها

التجاء إلى الله الذى يقول فى محكم كتابه : (أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) .

جاء عبد مكاتب[١] إلى الإمام على رضى الله عنه ، فلما جاء ذلك العبد إلى الإمام على قال له : إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنّى ، فقال ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل جبير ديْناً . أداه الله عنك ؟ قل : اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك ،» رواه الترمذى .

الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو أمامة

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار ، يقال له : « أبو أمامة» جالسا فيه ، فقال : يا أبا أمامة : مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يا رسول الله ، قال : أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك؟ فقال : بلى يا رسول الله ، قال قل : إذا أصبحت وإذا أمسيت ; اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزَن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الديْن وقهر الرجال ،

---

(١) العبد المكاتب : هو الذى اتفق معه سيده على عتقه اذا هو أدى جزءا معلوما من المال .

قال : فقلت ذلك ، فأذهب الله عز وجل همّي وقضى عنى دينى » . . رواه أبو داود .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأدّاه الله عنك ؟ قل يا معاذ : « اللهم مالك الملك : تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها ، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء : ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك » رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد جيد .

* * *

ما يستفاد من أحاديث الدين

نبين هنا ما يريده رسول الله ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

أولا : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادراً على الدفع .

ثانيا : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأُدى دَيْنه .

ثالثا : حسن معاملة الدائن ، يتجنب المدين سبّ عرضه وشتمه وغيبته .

رابعا : كل من قدر على أداء ما إقترض ، ولم يف : حشر مع

الظالمين ، وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين ، وحل عليه غضب الله وكراهته ».

خامسا : المدين المماطل يجلب لأمته الدماء والوباء والخسران ، ويوقعها فى الذنوب المهلكة ، ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها .

سادسا : أداء الدّين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ، ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .

سابعا : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه : سجلت عليه الآثام بكرور الأزمان .

دعاء مبارك

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما أصاب أحداً قط همٌ ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرن ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى — إلا أذهب الله عز وجل همّه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً ، قالوا : يا رسول الله : ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات : قال : أجل ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » رواه أحمد والبزار وأبو يعلى فى صحيحه .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كلمات

المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله » رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه ، وزاد فى آخره « لا إله إلا أنت » .

الاستغفار

من الأذكار التى تفرج القلوب ، وتزيل الهم ، والغم : الاستغفار : أى قولك : أستغفر الله .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أبو داود ، واللفظ له ، والنسائى وابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقى .

لا حول ولا قوة إلا بالله :

من الأذكار التى يفرج الله بها الهم والكرب والغم : قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله : كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها : الهم » رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم ، وكلاهما من رواية بشر بن رافع . أبى الأسباط ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

وصيته ﷺ لأسماء بنت عميس :

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ « ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب — أو فى الكرب : الله ، الله ربى لا أشرك به شيئاً » رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه .

وكان دعاؤه ﷺ عند الكرب :

لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم » . رواه البخارى ومسلم والترمذى .

فضل دعوة « ذى النون »(١)

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذا دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » رواه الترمذى واللفظ له ، والنسائى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد.

وزاد الحاكم فى رواية له : « فقال رجل يارسول الله : هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألا تسمع إلى قول الله عز وجل : (ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين ؟ ».

---

(١) يونس عليه السلام .

دعاء موسى الكليم

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حين جاوز البحر ببنى إسرائيل ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قال عبد الله فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ » رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد جيد .

فتح أبواب السماء لقبول الدعاء

عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : إذا نادى المنادى فتحت له أبواب السماء واستجيب الدعاء ، فمن نزل به كرب أو شدة فليتحين المنادى ، فإذا كبَّر كبَّر وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حىّ على الصلاة قال : حىّ على الصلاة ، وإذا قال : حىّ على الفلاح قال : حىّ على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة التقوى أحْينا عليها ، وأمتنا عليها ،وابعثنا عليها ، واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتاً ، ثم يسأل الله حاجته » . رواه الحاكم من رواية عفير بن معدان .

فائدة نبوية كريمة

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما كربنى أمر إلا تمثل لى جبريل فقال : يا محمد ، قل : توكلت على الحىّ الذى

لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذل ، وكبِّرْه تكبيراً » ، رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد .

دعاء الأسير

وروى الأصبهانى عن إبراهيم — يعنى ابن الأشعث — قال : « سمعت الفضيل يقول : إن رجلا على عهد رسول الله ﷺ أسره العدو ، فأراد أبوه أن يفديه ، فأبوا عليه إلا بشيء كثير لم يطقه ، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ : فقال : اكتب إليه فليكثر من قول : توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولىٌّ من الذل ، وكبره تكبيراً . قال : فكتب بها الرجل إلى ابنه ، فجعل يقولها ، فغفل العدو عنه ، فاستاق أربعين بعيراً فقدم بها إلى أبيه » .

فضل رعاية حقوق العباد

بعد هذا الطواف المبارك حول أقوال الرسول ﷺ التى دلت على الوفاء وأداء الديْن .. نسوق هذه الآيات الكريمة ، من كتاب الله تعالى ، والتى تخبرنا عن حب الله للمتقين ، وإحسانه إلى المؤمنين الذين لا تضيع بينهم الحقوق .

قال الله تبارك وتعالى فى سورة النحل : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ،

إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوه أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبيِّننّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة النحل أيضاً (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ، إنما عند الله هو خير لكم ، إن كنتم تعلمون) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الإسراء (وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولا) .

وقال تعالى فى سورة الروم : (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون).

وقال تعالى فى سورة والشمس : (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغنى ذو الرحمة) .

وقال تعالى فى سورة الأنفال : (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم) .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : (وهو الله فى السماوات وفى الأرض . يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الحج : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوّان كفور) .

عودة الى بدء

استحباب الدعاء والاسترجاع عند الموت

بعد الفراغ من الكلام عن أحكام الديون عامة ، وعن ديون الميت خاصة ، نواصل مسيرتنا عما يتعلق بما بعد الموت ، وما يستحب أن يقوله المصاب بعد وقوع الموت .

روى أحمد ومسلم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها ، إلا آجره الله تعالى فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » ، قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لى خيراً منه : رسول الله ﷺ .

وفى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات ولد العبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم . فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد » .

وفى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال: « يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء — إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه — إلا الجنة » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ؛ فى قول الله تعالى : (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من

ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) ، قال : أخبر الله عز وجل : « إن المؤمن إذا سلم الأمر لله ورجع واسترجع عند المصيبة ، كتب له ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله ، والرحمة ، وتحقيق سبيل الهدى » .

استحباب الاعلام بموته

إستحب الفقهاء إعلام أهل الميت وقرابته وأصدقائه وأهل الصلاح بموته ، ليكون لهم أجر المشاركة فى تجهيزه .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى ، فصفّ أصحابه وكبّر عليه أربعا » .

وروى أحمد والبخارى عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة ، قبل أن يأتيهم خبرهم .

وقال البيهقى : وبلغنى عن مالك بن أنس أنه قال : لا أحب الصياح لموت الرجل على أبواب المساجد ، ولو وقف على حلق المساجد فأعلم الناس بموته ، لم يكن به بأس ..

تحريم النياحة على الميت

النياحة على الميت : هى رفع الصوت بالبكاء عليه .. فقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مصرحة بتحريمها :

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها : تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودر من جرب[١] » .

وعن أم عطية قالت : « أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا ننوح » . رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أنه قال : « أنا برىء ممن منعه رسول الله ﷺ .. إن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة[٢] » .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : « أغمى على عبد الله ابن رواحة ، فجعلت أخته تبكى : واجبلاه ، واكذا ، واكذا ، (تعدّد عليه) فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لى : أنت كذلك ؟ » .. رواه البخارى . وزاد فى رواية : « فلما مات : لم تبك عليه » .

* * *

ومن هنا كان واجبا على المسلم قبل موته أن يوصى ويبرأ من كل ما يخالف سنة رسول الله ﷺ ، حتى لا يقع تحت طائلة المسئولية .

فإن كان يرضيه النياحة ولا ينهى من ينوح قبل موته راضيا بذلك : وقع فى المسئولية بعد الموت :

---

(١) السربال : القميص . والأجرب سريع الألم لتقرح جلده ، والقطران : يقوى شعلة النار ، فيكون عذاب النائحة بالنار بسبب هذين القميصين أشد العـذاب .

(٢) الصالقة : هى التى ترفع صـوتها بالندب والنياحة . والحالقة هى التى تحلق رأسها عند المصيبة . والشاقة هى التى تشق ثوبها .

عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الميت ليعذب ببكاء الحى : إذا قالت : واعضداه ، وامانعاه »، واناصراه، واكاسياه : جُبذَ الميت فقيل له : أناصرها أنت ؟ أكاسيها أنت ؟ » . رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت » . رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة من الكفر بالله : شق الجيب ، والنياحة ، والطعن فى النسب » رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تصلى الملائكة على نائحة ولا مرنّة » . رواه أحمد وإسناده حسن .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن هذه النوائح يُجعَلن يوم القيامة صفّين فى جهنم : صف عن يمينهم وصف عن يسارهم ، فينبحن على أهل النار كما تنبح الكلاب » ، رواه الطبرانى فى الأوسط .

وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة ». رواه أبو داود ، وليس فى إسناده من ترك.

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : « لما مات أبو سلمة قلت : غريب وفى أرض غربة لأبكينّه بكاء يتحدث عنه .. فكنت وقد تهيأتُ للبكاء

عليه ، إذ أقبلت امرأة تريد أن تساعدنى ، فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال : أتريدين أن تدخلى الشيطان بيتاً أخرجه الله منه ؟ فكففت عن البكاء ، فلم أبلك » ، رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية ». رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وعن أسيد بن أبى أسيد التابعى عن امرأة من المبايعات قالت : «كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا : أن لا نخمش وجها ، ولا ندعوا ويْلاً[1] ولا نشق جيبا ، ولا ننشد شعراً » رواه أبو داود .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : « لعن الخامشة وجهها ، والشاقة جيبها ، والداعية بالويل والثبور » رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

الاحداد على الميت

وهذا الإحداد متعلق بالنساء .. ومعناه: ترك ما تتزين به المرأة من الحلى والكحل ، والحرير ، والطيب ، والخضاب .

وأقصى مدة للإحداد على غير الزوج : ثلاثة أيام ، بشرط أن يأذن لها زوجها بذلك ، فإن لم يأذن لها : كان ذلك غير جائز .

(١) لا ندعوا ويلا : أى لا نطلب هلاكا .

روى الجماعة (إلا الترمذى) عن أم عطية أن النبي ﷺ قال : لا تُحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج ، فإنها تحدّ عليه أربعة أشهر وعشرا . ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصْب[1] ولا تكتحل ، ولا تمس طيبا ، ولا تختضب ، ولا تمتشط إلا إذا طهرت ، تمس نبذةً من قُسط أو أظفار » .

وهكذا يتبين أن مدة الإحداد على وفاة الزوج : أربعة أشهر وعشرة أيام ، أى مدة عدة الوفاة ، وإنما كان الأمر كذلك : بالنسبة للزوج فقط عرفاناً له ، ومراعاة لحقه .

صنع الطعام لأهل الميت

استحب الشارع : صنع الطعام لأهل الميت ، لأنه من باب البر والتقرب إلى الأهل والجيران ..

لما مات جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « اصنعوا لآل جعفر طعاما ، فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم » رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح .

قال الشافعى : وأحب لقرابة الميت أن يعملوا لأهل الميت فى يومهم وليلتهم طعاما يشبعهم ، فإنه سنة وفعل أهل الخير .

---

(١) عصب : برود يمانية . والقسط والأظفار : نوعان من العود الذى يتطيب به .. والنبذة : القطعة ، أى أنه يجوز لها وضع الطيب عند الغسل من الحيض .

واستحب العلماء الإلحاح عليهم ليأكلوا ، لئلا يضعفوا بتركه : استحياء ، أو لفرط جزع ...

واتفق الأئمة على كراهة صنع أهل الميت طعاما للناس يجتمعون عليه ، لما فى ذلك من زيادة المصيبة عليهم ، وشغلا لهم إلى شغلهم ، وتشبُّها بصنيع أهل الجاهلية : لحديث جرير ، قال : « كنا نعدُّ الاجتماع إلى أهل الميت ، وصنيعة الطعام بعد دفنه : من النياحة » .

وذهب بعض العلماء إلى التحريم

قال ابن قدامة : فإن دعت الحاجة إلى ذلك : جاز ، فإنه ربما جاءهم من يحضر ميتهم من القرى والأماكن البعيدة، ويبيت عندهم ، ولا يمكنهم إلا أن يضيفوه » .

سكرة الموت

(وجاءت سكرة الموت بالحق ؛ ذلك ما كنت منه تحيد)

قال رسول الله ﷺ وهو يعالج سكرات الموت : « سبحان الله ! إن للموت لسكرات » !!.

هذه كلمة نسوقها لترقيق القلوب إذا قست ، وتذكرة للعيون إذا جمدت .. فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

روى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولم يلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وبيده عود ينكث به الأرض ، فرفع رأسه وقال : استعيذوا بالله من فتنة القبر ومن عذابه (مرتين ، أو ثلاثا) ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا : نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجئ ملك الموت فيجلس عند رأسه ويقول : أيتها النفس المطمئنة الزاكية : اخرجى إلى مغفرة الله ورضوانه ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء ، فيأخذونها ولا يدعونها فى يده طرفة عين ، فيجعلونها فى

ذلك الكفن والحنوط ، فيخرج منها أطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان (بأحسن أسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا ، فيستفتحون لها ، فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابه فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .. فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك : فيقول : دين الإسلام ، فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ أهو رسول الله ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له : وما علمك به ؟ فيقول : قرأت كتاب الله ، وآمنت به ، وصدقته .. قال فينادى مناد من السماء : صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، فيأتيه من ريحها وطيبها وروحها ورائحتها ، ويفسح له فى قبره مد البصر ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، طيب الرائحة ، فيقول له : أبشر بالذى يسرك .. هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رَبِّ أقم الساعة : — شوقا إلى ما يرى من النعيم » .

* * *

وفى هذا المعنى يقول أحد الحكماء :

نحن فى عيشة الوصال المنيـــة   نجتلى الراح فى الكؤوس السنيه

قد هجرنا دار الفناء وسرنا — لدارٍ . . . حياتها أبــديه
آنستنا هياكل النور لمــا — فارقتنا الهيــاكل البشريه !
وسمعنا الخطاب : طيبوا فلا — حزن عليكم ، ولاتخافوا منيّه
قد حظيتم برؤيتى وخطابى — وسكنتم دار الجنان العليه ! !

* * *

بقية الحديث:

« قال : وأما العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة ، نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ، ومعهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجئ ملك الموت فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : اخرجى إلى سخط الله وغضبه . فتتفرق الأعضاء كلها فينزعها كما تنزع الفسود من الصوف المبلول ، فتنقطع الأعضاء كلها ، فيأخذونها ، فيجعلونها فى تلك المسوح ، ويخرج منها رائحة منتنة ، كأنتن رائحة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هو فلان ابن فلان (بأقبح أسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا ، فيستفتحون ، فلا يفتح له .. ثم قرأ رسول الله ﷺ : لا تفتّح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط ، ويقول الله تعالى : اكتبوا كتابه فى سجين ، ثم تطرح روحه طرحا .. ثم قرأ رسول الله ﷺ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، فتعاد روحه فى جسده ثم يأتيه ملكان فيجلسانه ، ويقولان

له من ربك ، فيقول : هاه ! هاه لا أدرى : فيقولان له : ما دينك : فيقول هاه ! هاه ! لا أدرى ، فيقولان له: ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه ! هاه ! لا أدرى . فينادى منادٍ من السماء : كذب عبدى ، فافرشوا له من النار ، وألبسوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار .. فيدخل عليه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول له : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد .. فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث السيء فى دار الدنيا : فيقول : رَبِّ لا تُقِم الساعة » ..

مناجاة !

أيا من كلما نودى أجابـا ... ومن بجلاله ينشى السحـابا
وكلم فى الدجا موسى بلطفٍ ... كلاما ثم ألهمه الخطـابا
ويا من رد يوسف بعد بُعد ... وكان أبوه ينتحب انتحـابا
ويا من خص أحمد واصطفاه ... وأعطاه الرسالة والكتـابا
وقرّبـــه وسمـــاه حبيبـا ... وأعتق من شفاعته الرقابا
لك الفضل المبين على عطاء ... مننت به وضاعفت الثوابا

روضة روحانية

كثيراً ما تنغمس النفس فى ماديات الحياة ، فتشعر بظلمة قاتمة دكناء، وتحتاج عندئذ إلى ما يبدد عنها غياهب ظلماتها. وليس هناك ما يبدد غياهب

هذه الظلمات إلا ذكر الله.. قال تعالى.. (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

قال أحد الحكماء فى مناجاة الندم والتوبة :

واحسرتى : واشقوتى من يوم نشر كتابيه !
واطول حزنى : إن أكن أوتيته بشماليه !
وإذا سئلت عن الخطايا : ماذا يكون جوابيه !
واحرَّ قلبى : أن يكون مع القلوب القاسية !
كلا ، ولا قدمت لى عمــــلا ليوم حسابيه
بل إننى : لشقاوتى ، وقساوتى ، وعذابيه !
بارزت بالزلات فى أيــــام دهــــر خاليه !
من ليس يخفى عنه من قبح المعاصى خافيــه !
أستغفر الله العظيم ، وتبت من أفعاليــــه
فعسى الإله يجود لى بالعفو ، ثم العافيــــه !!

عظة وعبرة : فعليك يا أخى بالإخلاص لله ، وإياك من الرياء ، فإنه يضيّع الثواب ويحبط العمل :

روى عدى بن حاتم رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها ، واستنشقوا ريحها ، ونظروا إلى قصورها : نودوا : أن اصرفوهم عنها ، فلا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة مارجع الأولون والآخرون بمثلها ، فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا : كان أهون علينا ، قال ذلك

أردت بكم .. كنتم إذا خلوتم : بارزتمونى بالمعاصى ، وإذا لقيتم الناس : لقيتموهم مخبتين ، تراءون الناس ، بخلاف ما تعطونى من قلوبكم ... هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم الناس ولم تجلونى . فاليوم أذيقكم أليم عذابى ، مع ما حرمتكم من ثواب الآخرة » !!

فاللهم ارزقنا الإخلاص فى القول والعمل ، وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين ، وقنا خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

رباه !!

أيا من جل عن كيف ، وأين	وعن ند ، وعن ولد ، ووالد
ملكت الكائنات بحسن صنع	ولانت من مخافتك الجلامد
أذنت لها تكون ، فاستكانت	وأنت على جميع الخلق شاهد
وكنت ، بحيث لا كون ، وعون	وحاشى أن تحيط بك المعاهد
وأنت بحيث أنت ، وليس أين ،	ولا كيف تمثله الشواهد
أحطت بجملة الأشياء علما	وأنت لكل ما فيها مراصد
ويا من ماله فى الملك ثان	ولا مثل ، وليس له مضادد
أجرنا من عذابك واعف عنا	وبلغنا إلى نيل المقاصد
فقد عودتنا الإحسان لطفا	وصعب عندنا قطع العوايد

* * *

إعلم — يا أخا الإسلام — أن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ...

فيا أخي :

جدد السفينة : فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد : فإن السفر طويل ، وأخلص العمل : فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل : فإن العقبة كئود » .

ان النفس لأمارة بالسوء !

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح ، فإنهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل إن تهمله ، شب على حب الرضاع ، وإن تفطمه : ينفطم
فراعها ، وهي في الأعمال سائمة فإن هي استحلت المرعى : فلا تسم
كم حسنت لذة للمــــرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم في الدسم !

يرحم الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد طلب معاوية بن أبي سفيان من ضرار الصدائي أن يصفه له ، فقال : يا ضرار : صف لي علياً ، قال : أعفني يا أمير المؤمنين ، قال معاوية : لتصفنّه . قال ضرار : أما إذ لابد من وصفه ، فكان ، والله : بعيد المدى ، شديد القوى .. يقول فصلا ، ويحكم عدلا .. يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه .. يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته .. كان — والله — غزير العبرة ، طويل الفكرة .. يقلب كفه ، ويخاطب نفسه .. يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن كان فينا : كأحدنا .. يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن — مع تقريبه إيانا ، وقربه منا — لا نكاد نكلمه ، لهيبته ، ولا نبتدئه :

لعظمته .. يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين .. لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .. وأشهد : لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، متمثلا فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء اليتيم ، يقول : يا دنيا : غرى غيرى .. إلى تعرضت ؟ أم إلىّ تشوقت ؟ هيهات هيهات ! لقد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها .. فعمرك قصير ، وخطرك حقير .. آه من قلة الزاد وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! .

فبكى معاوية رحمه الله وقال : يرحم الله أبا الحسن : لقد كان كذلك .. فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبح واحدها فى حجرها ؟!

يارب !

حاسبت نفسى ، لم أجد لى صالحا ... إلا رجائى رحمـــة الرحمن
ووزنت أعمالى علىّ ، فلم أجــد ... فى الأمر إلا خفة الميزان !
وظلمت نفسى فى فعـــال كلها ... وَيْحى — إذن — من وقفة الديان !
يا أيها الإخوان ! إنى راحــــل ... مهما يطل عمرى ، فإنى فان ،
يارب : إن لم ترض إلا ذا تُقى ... مَن للمسىء المذنب الحيران ؟؟!

أخا الإسلام :

الدنيا إلى شتات ، وكل حىٍّ إلى ممات !!

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال ، فزالوا .. والجبال جبال وسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة !!

قال الجنيد — رحمه الله : دخلت على السرى السقطي عند الموت ، وكان أحرق قلبه الخوف ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : كيف أشكو إلى طبيبي ما بى ؟ .. والذى بى أصابنى من طبيبي ؟ . فأخذت المروح لأروّح عليه فقال : كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق ؟ ثم أنشد قائلا :

القلب محترق ، والدمع مستبق والقلب مجتمع ، وللصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى والشوق والقلق؟؟

• • •

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الذى كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا .. فإن مما يهوّن عليكم الحساب غدا : أن تحاسبوا أنفسكم اليوم . وتزينوا للعرض الأكبر : (يومئذ تُعرضون ، لا تخفى منكم خافية) .

خطرات !

قال منصور بن عمار رحمه الله ، خرجت ذات ليلة مظلمة ، فسمعت من يناجي الله تعالى ، ويقول : إلهي ! وعزتك وجلالِك : ما أردت بمعصيتى مخالفتك !

ولقد عصيتك — إذ عصيتك — وما أنا بمكانك جاهل ، ولكن خطيئتى عرضت علىّ ، وسولت لى نفسى أعانتى عليها شقائى ، فغرّنى سترك المرخى علىّ ، فعصيتك بجهلى ، وخالفتك لشقوتى . فمن يستنقذنى من عذابك ! وبحبل مَن : أعتصم ، إن قطع حبلك عنى ؟

واحسرتا ! إذا قيل للمخفين : جوزوا ، وللمثقلين : حطوا .. أتراني : مع المخفين أجوز ؟ أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي ! كلما كبر سني : كثرت ذنوبي .. ويلي : كم أتوب ؟ وكم أدعو ؟! أما آن لي أن أستحي من علام الغيوب ؟! ما اعتذاري ، وأمر ربي عصيت ؟!

ما اعتذاري ، وأمر ربي عصيت حين تبدى صحائفي ما أتيت
ما اعتذاري ، إذا وقفت ذليلا قد نهاني ، وما أراني انتهيت !
يا غنيا عن العباد جميعا وعليما بكل ما قد سعيت !
ليس لي حجة ، ولا لي عذر فاعف عن زلتي ، وما قد جنيت

ثم قال :

يارب أنت أمرتني ونهيتني وأريتني طرق الضلالة والهدى
وعلمت أني لا أفر من الذي قدرت لي .. إن كان خيرا أو ردى
وسلكت بي ما شئت للشيء الذي في الخلق ما أخفيته عنهم سدى
فاقبل بفضلك توبتي لك مخلصا وارحم ، فإني قد بسطت لك اليدا
واصفح عن العبد الذي يا سيدي قد جاء معترفا ، وعاش موحدا

• • •

إذا علمت هذا يا أخي : فصُم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعدّ الزاد لليلة صبحها يوم القيامة !!

حقيقة لا مفر منها :

وهكذا يتطرق بنا الحديث إلى سؤال : هل يجوز إعداد الكفن والقبر قبل الموت ؟

والجواب على ذلك : نعم .

فقد جاء فى الحديث « أن امرأة أهدت بُردة إلى النبي ﷺ ، فطلبها أحد أصحابه ، فأعطاه إياها ، فقال له الصحابة : ما أحسنت . لقد لبسها النبي ﷺ ، وهو فى حاجة إليها ، فقال الصحابى : والله ما سألته لألبسها ، إنما سألته لتكون كفنى .. قال سهل رضى الله عنه : فكانت كفنه » .

ويستفاد من هذا الحديث : جواز تحصيل ما لابدّ منه للميت — من كفن ونحوه — فى حال حياته ، ويلتحق به : حفر القبر .

وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : لا بأس أن يشترى الرجل موضع قبره ، ويوصى أن يدفن فيه .

وروى عن عثمان وعائشة وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم : أنهم فعلوا ذلك .

فـــائـدة

يستحب للمؤمن أن يسأل الله أن يقبض روحه فى أحد الحرمين الشريفين :

لما رواه البخارى عن حفصة رضى الله عنها ، أن عمر رضى الله عنه

قال : اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك — ﷺ فقلت : أنا هذا ؟ فقال : يأتينى به الله إن شاء الله .

وروى الطبرانى عن جابر أن النبي ﷺ قال : « من مات فى أحد الحرمين : بعث آمناً يوم القيامة » .

أجر من مات له ولد

اعلم أن الصبر على فقد الأولاد — ذكوراً كانوا أم إناثاً — له عند الله من الأجر ما يقول فيه ربنا تبارك وتعالى : « إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

روى البخارى عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة ، بفضل رحمته إياهم » .

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ : اجعل لنا يوما . فوعظهن ، وقال : « أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد : كانوا لها حجاباً من النار ، قالت امرأة : واثنان ؟ قال : واثنان » .

أعمارنا قصيرة

يا من بدنيـــــاه اشتغل وغـــرَّه طـــــول الأمل

المـــوت يأتى بغتــــة والقبر صندوق العمـــــل

ما أقصر أعمارنا ! !

كما أخبر بذلك الصادق المعصوم ﷺ :

فقد روى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « أعمار أمتى : ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم : من يجوز ذلك » .

فيا أخى :

اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك .

الدنيا سجن المؤمن

ما أجمل لقاء الله على الإيمان والتقوى ! ! (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم) * (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة : هذا يومكم الذى كنتم توعدون) .

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم) .

وروى البخارى ومسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بجنازة . قال : مستريح أو مستراح منه ! فقالوا : يا رسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ فقال : العبد المؤمن يستريح من نَصَب الدنيا (أى تعبها) ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ! !» .

خاتمة

(نسأل الله حسن الخاتمة)

من المناسب أن نختم بحثنا هذا بأحاديث عن رسول الله ﷺ تملأ النفس طمأنينة وسكينة ومعرفة بالله ، عندما يحل القضاء ، وينزل البلاء بالعبد :

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن — أو تملأ — ما بين السماء والأرض ، والصلاةُ نور ، والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك .. كل الناس يغدو فبائع نفسه : فمعتقها ، أو موبقها » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ... ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع ، من الصبر » رواه البخارى ومسلم فى حديث تقدم .

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أربع لا يصبن إلا بعجب : الصبر ، وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله ، وقلة الشيء » رواه الطبرانى والحاكم .

وعن علقمة قال : قال عبد الله : « الصبر : نصف الإيمان ، واليقين : الإيمان كله » رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : عجباً لأمر المؤمن : إن أمره له كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن .. إن أصابته سراء ، شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرا ، صبر ، فكان خيراً له » رواه مسلم .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « إن الله عز وجل قال يا عيسى : إنى باعث من بعدك أُمة : إن أصابهم ما يحبون : حمدوا الله، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم فقال: يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى » رواه الحاكم قال : صحيح على شرط البخارى .

وروى عن سخبرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من أُعْطى فشكر ، وابتُلى فصبر ، وظَلم فاستغفر ، وظُلم فغفر .. ثم سكت ، فقالوا يارسول الله : مَالَهُ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . رواه الطبرانى .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، وعلى آلك وأصحابك أجمعين .

فهرس

الموضـــــوع	صفحة

الموضـــــوع	صفحة

رقم الايداع ١٩٧٩/٤٨٤٠

الترقيم الدولى x—٠٠—٧٣٢٣—٩٧٧ ISBN

مطابع الأهرام التجارية